الصعود الديني في الغرب وتأثيره على العلاقة مع العالم الإسلامي

عامر عبد المنعم - مصر

مدير تحرير سلسلة رؤى معاصرة التي تصدر عن المركز العربي للدراسات الإنسانية

ملخص البحث:

للدين دور حيوي في تشكيل السياسات الدولية، وللعقائد دورها في التحالفات العسكرية والتكتلات السياسية والتقسيمات الجغرافية، ومنذ اعتنق الإمبراطور الروماني قسطنطين النصرانية لم ينخلع الغرب عن دينه، وأصبح الدين مكونًا هامًّا في تشكيل أوروبا.

وكان الدين محركًا رئيسيًّا للكثير من الحروب والاعتداءات التي قام بها الأوروبيون ضد الأمة الإسلامية وبقية العالم، مما يعني أن الصراع الديني بين الغرب والمسلمين صراع طويل ومستمر.

من دراسة تاريخ الغرب مع الدين يتبين أن الغرب كيان يميل بطبيعته إلى الصراع، فهو يتحرك بدافع من اتجاهاتٍ عدوانية أضفى عليها المشروعية الأخلاقية من خلال عقيدة تبدلت عبر التاريخ، وانقسمت مذهبيًّا داخل أوروبا. وواجه المسلمون المذهب الأرثوذكسي الذي اعتنقته الإمبراطورية البيزنطية، ثم الكاثوليكية في الحروب البابوية الصليبية، تلاها الكاثوليكية والبروتستانتية في الحملات الاستعمارية، والآن لا زالت الأمة الإسلامية تواجه الحروب العدائية التي يقودها البروتستانت المتحالفين مع اليهود في حروب أكثر اتساعًا وأشد دمارًا.

تلك الحروب التي تقام ضد العالم الإسلامي إنما هي نِتاجٌ طبيعي للأفكار العدائية المنبثقة من العقيدة التي ترى أن خلاص الغرب المتدين إنما يكمن في شن حروب نهاية الزمان.

ولا يمكن فهم التحركات الغربية دون فهم طبيعة العقلية الغربية التي تتخذ من الدين ستارًا للتنفيس عن عقدة الصراع مع الآخرين، التي ارتبطت بالشعوب الغربية تجاه بعضهم البعض وتجاه الآخرين.

وإن لم نفهم طبيعة الأفكار الدينية في تشكيل وتوجيه الغرب لن يستطيع العالم الإسلامي أن يضع نفسه على الطريق الصحيح لمواجهة العدوان، ولن يستطيع كذلك فهم البوصلة التي تحدد توجهات السياسات الغربية.

وإن لم يحذ المسلمون الآن حذو مَن سبقهم مِن سلف الأمة الذين عرفوا كيف يتعاملون مع أوروبا، بما حماها وباقي العالم من شرور الغرب، ودان لهم العالم قرونًا طويلة، فلا مخرج للأمة من حالة الانهزام والحصار والتبعية التي أنهكت قوة المسلمين وكبَّلتهم، وجعلتهم عرضة لمذابح لا تتوقف.

أفكار ومقتطفات

- إن الغـرب الـذي نتحـدث عنه يتكـون من القـارة الأوروبية وأمريـكا الشـمالية وأسـتراليا ونيوزيلندا. يبلغ عدد سكان الغرب نحو ٨٨٦ مليون نسمة، أي بنسبة ٨ ,١٣٪ من سكان العالم الذي يبلغ ٥٣٩ ,٦ مليار نسمة.

- أعطـت الحضارة الإغريقية، أقدم حضـارة أوروبية، بُعدًا فكريًا للصراع وتأصيله؛ من خلال الصراع بين الآلهـة المزعومة والحروب التي تتشـارك فيها الآلهة مع البشـر، ثم جاءت الحضـارة الرومانية لتضفي المشروعية السياسية للصدام مع الآخر والقضاء عليه، ثم منحت المسيحية الغربية المحرفة التي اعتنقها الرومان، وتوارثها الغربيون بعد ذلك مرجعية أخلاقية لهذه الروح.

- لـم تكن كراهية الإسـلام والنزعة العدائيـة المهيمنة على الغرب كافية لكسـر المسـلمين طوال فترات ازدهار الحكم الإسـلامي. لكن مع شـيوع الضعف في الأمة الإسـلامية تمكن الغـرب من الخروج من القارة الأوروبية، والسيطرة على البحار والمحيطات التي هيأت له فرصة الهيمنة على العالم.

- وفق تفسيرات الكتاب المقدس لمعركة هرمجدون فإن ميدان المعركة سيكون واسعًا لدرجة أنه سيغطي مئات الأميال شمال القدس وجنوبها، وسترتفع بحور الدم حتى تصل إلى قرب ألجمة الخيول.

- في عام ٣١٣م أتاح قسـطنطين حرية العبادة للنصارى، و«اعترف بشـرعية الكنيسة النصرانية، كما أرجع للنصـارى الملكية التي سُـلبت منهم.. وفي عام ٣٢٤م جعل القسـطنطينية عاصمتـه ومركزًا للحكومة الرومانية. وفي عام ٣٢٥م ترأس قسـطنطين أول مجلس عالمي للكنيسـة النصرانية في نيقية، وهي الآن في شمال غرب تركيا.

- كان للمذكرة الشهيرة التي علقها لوثر على باب كنيسة فتنبرج ١٥١٧م ضد فساد الكنيسة بداية للانقسام الكبير داخل المسيحية، والذي كان انقلابًا نتج عنه ولادة المذهب البروتستانتي وتقسيم الغرب.

- قامـت الكالفينيـة بتحويـل أمريكا إلى مجتمع رأسـمالي «يقدس العمـل الدنيوي بوصفـه واجبًا دينيًا، ويقدس الثروة بوصفها ثمرة من ثمار النعمة.

- تميزت الانطلاقة البروتستانتية بارتباطها بالعرق الأنجلوساكسوني. هذا العرق الذي استطاع في القرون الثلاثة الأخيرة أن يملك زمام جزء كبير من قيادة الغرب، ويسـعى للسيطرة على العالم، خاصة بعد خلو الساحة من أي خصم قوي.

- كان وصول البيوريتان الإنجليز إلى الشاطئ الأمريكي في الرحلة الأمريكية الشهيرة على مركب ماي فلاور هو البداية لتأسيس الدين في العالم الجديد.

- مع تدفق المزيد من المهاجرين الأوروبيين إلى أمريكا لم يعد الانغلاق البروتستانتي البيوريتاني ملائمًا، خاصة مع تمرد المستعمرات، وعدم قبول المستعمرين الجدد الخضوع لكنيسة إنجلترا. حدثت تنازلات فرضها الواقع، وخففت من مسألة التعصب ضد المذاهب الأخرى، واضطرت الكنيسة إلى ضم أشخاص ما كان يسمح لهم سابقًا.

- لم يختف الميل إلى استغلال الدين عند الرؤساء الأمريكيين، حتى الأشد علمانية منهم، فالرئيس كلينتون صاحب الفضيحة الأخلاقية الشهيرة، والذي يعد من أعداء الأصوليين قال في خطابه الافتتاحي سنة ١٩٩٧: « استرشادًا بالرؤية القديمة لأرض الميعاد، دعونا نوجه أبصارنا إلى أرض ميعاد جديدة».

- بدأ الأنجلوساكسون يتحركون بقوة، وبدا واضحًا أن الدول الخمس التي تنتمي إلى هذا العرق، وتعتنق ذات المذهب تشكل عصبة فاعلة على صعيد العلاقات الدولية. وهذه الدول هي الولايات المتحدة الأمريكية، المملكة المتحدة، كندا، أستراليا، ونيوزيلندا.

- لقد أنشأ المحور البروتستانتي الأحلاف العسكرية المغلقة، أو بمشاركة دول أخرى دون التنازل عن القيادة والسيطرة.

- بإمكان إيشلون اعتراض وتعقب أكثر من ثلاثة بلايين عملية اتصال يوميًا، وتشمل كل شيء من المكالمات الهاتفية العادية والجوالة، واتصالات الإنترنت، وانتهاء بالاتصالات التي تتم عبر الأقمار الاصطناعية.

- الدولة الإسلامية عبر التاريخ كانت على دراية كاملة بمنافسيها، وعرفت كيف تتعامل معهم بالأسلوب الذي يجدي.

- كانت الخلافة هي القوة الوحيدة التي استطاعت أن تردع أوروبا، وتمنعها من ممارسة ظلمها والتنفيس عن غريزة العداء ضد الآخرين قرونًا طويلة. ومع حالة انكسار الأمة الإسلامية بدأ الغرب في تحقيق مكاسب على حساب المسلمين.

- رغم أن الإسلام هو أسرع الأديان انتشارًا الآن، يبقى أن التنصير المدعوم عسكريًا وماليًا نجح في القرنين الماضيين في الوصول إلى العديد من مناطق العالم الإسلامي وغير الإسلامي، وتنافست الطوائف النصرانية لاقتسام العالم، وأصبحت الإرساليات التنصيرية في كل الدول تقريبًا.

- إن التيار الغربي المتطرف سيعمل على زيادة الاعتداءات الغربية التي ستتصاعد وستتسع رقعتها، لكونها ضرورة ولازمة لإقامة مملكة الرب، كما يزعمون.

- إن وعد بلفور جاء تتويجًا للأفكار البروتستانتية المتطرفة، وترجمة مباشرة لعقيدة الأنجلوساكسون في بريطانيا وأمريكا، وليس فقط تحقيقًا لأمنيات اليهود.

- قد يختلف المتدينون الغربيون، وينقسمون إلى مذاهب دينية شتى، ولكن في المعركة مع الإسلام يتحدون جميعًا ضد المسلمين.

- إذا كان الأمويون والعباسيون قد فهموا نزعة العدوان الأوروبية وقهروها بالجهاد، وحصروا الغربيين في أوروبا، فإن العثمانيين أفضل من استثمر هذه الخلافات عن علم ودراية وتخطيط. فقد استغلوا الصراع بين الكنيسة الكاثوليكية في روما والكنيسة الأرثوذكسية في الدولة البيزنطية مما جعلهم يفتحون القسطنطينية ويسقطون الإمبراطورية البيزنطية.

- لم يعد من المقبول ما يدعو إليه بعض المحسوبين على الأمة بأن نتجرد من ديننا في مواجهتنا مع الغرب في وقت يهاجمنا الغربيون بكل أسلحتهم.

- عالم اليوم لا يعرف الأقطار المعزولة ولا الكيانات الصغيرة، ولا الجماعات المحاصرة. إن الأعداء يواجهوننا جميعًا ولا يردعهم أن نواجههم فرادى.

- إن إعادة بناء رأس للأمة هو التحدي الحقيقي لحصد نتاج حالة المقاومة واليقظة التي باتت ظاهرة مشهودة في أنحاء الجسد الإسلامي.

- إن الغرب كيان يميل إلى الصراع، يتحرك بدافع من اتجاهات عدوانية أضفى عليها المشروعية الأخلاقية من خلال عقيدة تبدلت عبر التاريخ، وانقسمت مذهبيًّا داخل أوروبا.

- لا يمكن فهم التحركات الغربية دون فهم طبيعة العقلية الغربية التي تتخذ من الدين ستارًا للتنفيس عن عقدة الصراع مع الآخرين، التي ارتبطت بالشعوب الغربية تجاه بعضهم البعض وتجاه الآخرين.

- إن لم نحذ حذو من سلف من أبناء الأمة الإسلامية الذين دان لهم العالم قرونًا طويلة، فلا مخرج للأمة من حالة الانهزام والحصار والتبعية التي أنهكت قوة المسلمين وكبَّلتهم، وجعلتهم عرضة لمذابح لا تتوقف.

الصعود الديني في الغرب وتأثيره على العلاقة مع العالم الإسلامي

عامر عبد المنعم- مصر

مدير تحرير سلسلة رؤى معاصرة التي تصدر عن المركز العربي للدراسات الإنسانية

أولًا: تأثير الصعود الديني الغربي على العلاقة مع العالم الإسلامي.

ثانيًا: الدين وتشكيل أوروبا.

ثالثًا: البروتستانتية وتأسيس أمريكا.

رابعًا: أسطورة الشعب المختار.

خامسًا: علاقة الدين بالأحلاف العسكرية.

سادسًا: التعاون الاستخباري، وأثر المذهب الديني.

سابعًا: كيف نتعامل مع ظاهرة الصعود الديني في الغرب.

يلعب الدين دورًا حيويًّا في تشكيل السياسات الدولية، وتعد العقائد من العوامل التي تقف وراء الكثير من التحالفات العسكرية والتكتلات السياسية والتقسيمات الجغرافية. وتشير مجريات التاريخ إلى أن كل صعود لمذهب نصراني في الغرب يرتد على الأمة الإسلامية في صورة اعتداءات وحروب. ومع كل صحوة دينية في الغرب يزداد الغرب عدوانية تجاه العالم الإسلامي.

ومنذ اعتنق الإمبراطور الروماني قسطنطين النصرانية في القرن الرابع الميلادي، فإن الغرب لم ينخلع عن دينه، وأصبح الدين مكونًا هامًّا في تشكيل أوروبا. ورغم ما أصاب النصرانية من انشقاق، فإن العداء للإسلام كان القاسم المشترك في كل العصور، وإن تفاوتت درجة العداوة من مذهب لآخر، حسب فترات الصعود والهبوط.

لقد كان الدين محركًا رئيسيًّا للكثير من الحروب والاعتداءات التي قام بها الأوروبيون ضد الأمة الإسلامية وبقية العالم، بداية من هجمات البيزنطيين، ثم الحروب الصليبية، مرورًا بالحملات الاستعمارية التي سبقتها حركة الكشوف الجغرافية التي كان من أهدافها نشر الدين خارج أوروبا، وتنصير الشعوب ونهب ثرواتها، وانتهاء بالحروب الاستباقية التي تشن مؤخرًا لمنع المسلمين من استعادة قوتهم ولاستمرار خضوعهم للغرب.

إن الصراع الديني بين المسلمين وبين الغرب طويل ومستمر. لقد واجه المسلمون الدولة البيزنطية الأرثوذكسية، وساهموا في انهيارها، ثم واجهوا أوروبا الكاثوليكية في الحروب الصليبية وهزموها،

وقاوموا الاستعمار حتى طردوه، إلا أن المواجهة مع البروتستانتية الأنجلوساكسونية[1]، المذهب النصراني الثالث لم تنته بعدُ؛ إذ جاء الهجوم الغربي في فترة ضعف الأمة وانكسارها.

ويلاحظ أن الغرب لم ينل من المسلمين، ويسيطر على العالم الإسلامي إلا بعد ضعف وانهيار الخلافة الإسلامية التي كانت صمام الأمان للمسلمين، والحاجز الذي يحميهم ويحمي شعوب العالم من نزعة القتل والعدوان المرتبطة بالحضارة الغربية.

يركز هذا البحث على دور الدين في الغرب، وتأثيره على العلاقة مع العالم الإسلامي.

وتأتي أهمية الموضوع لقلة الدراسات التي تتناول البعد الديني، وأثره في إدارة الغرب لعلاقاته مع العالم بالعموم، ومع الأمة الإسلامية بشكل خاص.

يهدف البحث أيضًا إلى مقاومة فكرة تبسيط دور الدين في السياسة الغربية، وتغليب فكرة أن الغرب انسلخ عن الدين تمامًا للتخديم على اتجاهات فكرية معادية للدين في العالم الإسلامي، وبعضها يعمل لصالح الغرب فيما نعلم.

ما المقصود بالغرب؟

إن الغرب الذي نتحدث عنه يتكون من القارة الأوروبية وأمريكا الشمالية وأستراليا ونيوزيلندا. يبلغ عدد سكان الغرب نحو ٨٨٦ مليون نسمة أي بنسبة ١٣,٨٪ من سكان العالم الذي يبلغ ٦,٥٣٩ مليار نسمة. [2]

لا يهتم الباحث في هذه الدراسة بحالة التدين الشخصي، أو ما يتعلق بالشعائر التعبدية للأفراد أو الجماعات، وإنما يركِّز على البعد الديني المرتبط بالسياسة واتخاذ القرار، وعلاقة الحكومات والسلطات الحاكمة بالدين، سواء كان الدين هو المحرك والمحرض أم كان وسيلة لتحقيق الأهداف السياسية.

وعندما نتطرق إلى الدين في الغرب فإننا لا نُغفل طبيعة العقلية الغربية التي تميل إلى المواجهة وحب الصراع مع الآخرين، وهذه الطبيعة هي التي صبغت النصرانية بصبغتها المعاصرة والمحرفة، وقدمت للعالم ديانة محاربة تتناقض مع أصلها. تؤكد دراسة التاريخ أنه لا توجد حضارة سعت إلى إفناء واستئصال الحضارات الأخرى كما حدث مع الحضارة الغربية. إن فكرة الصراع قد جعلت الغرب في مواجهة مستمرة مع باقي شعوب الأرض، وفي خصام غير مبرر مع الكون والنفس والآخر.

إن تصور الدين في الغرب قد حُرِّف بحيث أصبح يدور حول إضفاء صفات التبرير لنزعات العدوان المرتبطة بالعقلية الغربية

وقد تطورت فكرة الصراع عبر تاريخ الغرب، وأخذت أبعادًا مختلفة، وفق كل نقلة حضارية. تلونت هذه الفكرة بألوان عديدة من المشروعية الزائفة. فقد أعطت الحضارة الإغريقية، أقدم حضارة أوروبية بعدًا فكريًّا للصراع، وتأصيله من خلال الصراع بين الآلهة المزعومة والحروب التي تتشارك فيها الآلهة مع البشر، ثم جاءت الحضارة الرومانية لتضفي المشروعية السياسية للصدام مع الآخر، والقضاء عليه، ثم منحت المسيحية الغربية المحرفة، التي اعتنقها الرومان، وتوارثها الغربيون بعد ذلك، مرجعية أخلاقية لهذه الروح، وإعطاء المبادأة بالعدوان صفة العدالة فيما عرف بنظرية «الحرب العادلة»، التي أثرت في الحضارة الغربية الحديثة، وقدمت أحد المبررات الأخلاقية الشاذة لفكرة الإبادة. [3]

إن الشعوب تختلف تبعًا للمؤثرات الحضارية والدينية والاجتماعية، وفي هذا السياق فإن طبيعة العقلية الغربية مختلفة عن باقي الشعوب. وهذه العقلية هي التي تجعل الغربيين في حالة صراع دائم لا ينتهي، وهي التي تجعل الغرب ينزع إلى المواجهة

والصدام لحسم خلافاته. وبسبب هذه النزعة العدائية شهد التاريخ الغربي صراعات بين الأوروبيين بعضهم وبعض، وكذلك شهد أكثر هذه الحروب دموية، وهما الحربان العالميتان الأولى والثانية، ووصل ولع بعض الساسة الغربيين لسفك الدماء إلى درجة الإبادة كما حدث للهنود الحمر، وللأقليات العِرقية الأوروبية.

وبسبب هذه النزعة العدوانية يجب الأخذ في الاعتبار أن هناك خلافات واسعة بين تصور الدين في الغرب، وتصور نفس الدين عند أتباع نفس المذاهب في باقي العالم. إن تصور الدين في الغرب قد حُرِّف بحيث أصبح يدور حول إضفاء صفات التبرير لنزعات العدوان المرتبطة بالعقلية الغربية.

ومن هنا فإننا عندما نتحدث عن ظاهرة الصعود الديني في الغرب، لا نعمم نفس الاستنتاجات على معتنقي نفس المذاهب في باقي العالم؛ فالنصرانية مثلاً في العالم العربي وفي أمريكا الجنوبية ليست محاربة، وليست عدوانية، كما نرى في الغرب المعاصر.

أولاً: تأثير الصعود الديني الغربي على العلاقة مع العالم الإسلامي:

صراع الغرب مع العالم الإسلامي، في حقيقته، يميل لأن يكون صراعًا دينيًا. فالغرب بادَر الإسلام بالعداء منذ البداية، ولم يقبل انتشار الديانة الجديدة. فلم يكن قتل مبعوث الرسول صلى الله عليه وسلم إلى ملك الروم على يد الغساسنة إلا علامة على التربص والمبادأة بالعدوان، قبل أن يقوى عود الدولة الوليدة، و«لم يُقتل لرسول الله صلى الله عليه وسلم رسول غيره». (٤)

كان النبي محمد صلى الله عليه وسلم يبعث الرسائل إلى الملوك يدعوهم إلى الإسلام، فبعث الحارث بن عمير الأزدي إلى الشام لتوصيل الدعوة إلى ملك الروم، فقتله الغساسنة المتحالفون مع الروم استهزاء بالاسلام. ويبدو من سير الأحداث بعد ذلك أن القتل كان عمدًا بالاتفاق مع الروم، حيث استعدوا لرد الفعل بكامل قوتهم.

كان قتل مبعوث الرسول صلى الله عليه وسلم موقفًا معاديًا؛ لاختبار الدولة الوليدة ومعرفة مدى طموحها. وقد أدرك النبي صلى الله عليه وسلم رسالة الروم، وردَّ عليها على الفور؛ بخروج جيش من المسلمين لمبادلة الرسالة برسالة متحدية؛ فيما عرف بغزوة مؤتة. لقد «كانت غزوة مؤتة قبل فتح مكة بحوالي أربعة شهور، ولا زالت الجزيرة العربية- عدا الجماعة المسلمة في يثرب المطهرة- في جاهليتها». (٥)

ومع انطلاقة الإسلام، والجيل الأول من صحابة الرسول صلى الله عليه وسلم استطاع المسلمون أن يواجهوا الإمبراطورية الرومانية، وينتزعوا منها الشام وشمال إفريقيا، وحالوا دون سيطرة الغرب على حوض البحر الأبيض المتوسط. وواصل المسلمون تقدمهم حتى طوقوا أوروبا، وحصروها في الضفة العليا للبحر المتوسط. ووصل العثمانيون إلى قلب أوروبا، وظلت قوة المسلمين تخيف الغرب، حتى سقوط الأندلس.

لم تكن كراهية الإسلام والنزعة العدائية المهيمنة على الغرب كافية لكسر المسلمين طوال فترات ازدهار الحكم الإسلامي. لكن مع شيوع الضعف في الأمة الإسلامية تمكَّن الغرب من الخروج من القارة الأوروبية، والسيطرة على البحار والمحيطات التي هيَّأت له فرصة الهيمنة على العالم.

وقد استخدمت البابوية الدين لتحقيق عدد من أهدافها السياسية، وشارك الملوك الأوروبيون في الحروب ضد المسلمين؛ لتوكيد سلطانهم السياسي، والحصول على احترام شعوبهم.

بعد سقوط الإمبراطورية البيزنطية الأرثوذكسية لعب الدين في الغرب دورًا دعائيًا في شن الحروب، وكانت الشعارات الصليبية هي الغطاء لشن الحروب في ثلاث حقب تاريخية:

الأولى: **الحروب الصليبية** (**١٠٩٦ - ١٢٩١**):

كان بابا روما هو قائدها الروحي؛ إذ استطاع حشد الدول الأوروبية وتوحيد القارة، بزعم استرجاع القدس من المسلمين. بالنسبة للبابا «فقد كانت المعضلة التي لا تزال تطلب حلاً هي كيف يمكن للسلطة الروحية أن تسود على السلطة الزمنية» [٦] لذا سرعان ما اقترح البابا أوربان الثاني حربًا مقدسة لتخليص قبر المسيح – كما يدعي– من أيدي المسلمين.

كانت الحملات الصليبية دينية سياسية، وتهدف إلى السيطرة على بيت المقدس؛ بالإضافة إلى إكراه الشعوب الأوروبية على الخضوع للبابا، ومن لم يقبل من المسيحيين الأوروبيين سلطة البابا قضي عليه، مثل الولدانسيين الذين عاشوا في الوديان شرق جبال الألب، والألبيين الذين عاشوا في الوديان الواقعة غرب جبال الألب.[٧]

ودامت هذه الحروب قرنين من الزمان، ولم تنته هذه الهجمة إلا على يد صلاح الدين الأيوبي الذي هزم الصليبيين في حطين. على الصعيد المقابل، تحققت بعض أهداف البابوية؛ إذ كانت الكنيسة هي «أول الرابحين من هذه الحرب الصليبية التي كان من نتائجها المباشرة أن زادت قوة البابا وسيادته ونفوذه وثروته» [٨]، وأصبح البابا هو الزعيم السياسي للغرب حتى القرن السادس عشر.

الثانية: **الحملات الاستعمارية في القرن الخامس عشر الميلادي**:

والتي جاءت عقب هزيمة المسلمين في الأندلس لتفتح الطريق أمام الصليبيين للغزو الكبير من غرب العالم الإسلامي. فقد واصل الأوروبيون محاصرة المسلمين في القارة الإفريقية للقضاء على أي قوة لهم، ربما تفكر في الانتقام لطرد المسلمين من الأندلس. وانطلق البرتغاليون كقوة بحرية تنافس أسبانيا. وتدفق الأوروبيون لاستعمار إفريقيا وآسيا والأمريكتين. كانت الكشوف الجغرافية هي البداية الحقيقية للاستعمار. اتجه هنري الملاح إلى الساحل المغربي على المحيط الأطلسي، وكان هدفه هو «إخضاع إفريقيا، وحتى بلاد غانة، وإقامة إمبراطورية مسيحية برتغالية في إفريقيا، ومنها يبدأ في نشر المسيحية في أنحاء إفريقيا».[٩]

هنري الملاح هو ابن الملك يوحنا الأول الذي طرد أهل المغرب العربي من سبتة عام ١٤١٥م، وقد تعلم الأمير هنري تعليمًا دينيًا، حتى إنه كانت قد أثرت عليه روح صليبية تجاه المسلمين، ويتضح هذا في الكتاب الذي أرسله إلى البابا نيقولا الخامس عام ١٤٥٤م؛ إذ يقول فيه: «إن سروري العظيم أن تعلم أن ولدنا العزيز هنري أمير البرتغال قد سار في خطى أبيه الملك جون بوصفه جنديًا قادرًا من جنود المسيح ليقضي على أعداء الله وأعداء المسيح من المسلمين الكفرة». [١٠]

ونفس الدوافع كانت وراء رحلة كريستوفر كولومبس إلى أمريكا، ومن تبعه من المستعمرين، ومنها البحث عن الذهب لتمويل الجيوش الأوروبية لاسترداد القدس من المسلمين.

اختلطت الدوافع الدينية في الحملات الاستعمارية بدوافع اقتصادية، فكانت حملات دينية لتنصير العالم، وأيضًا لنهب ثروات الشعوب وتحويلها إلى أوروبا.

الثالثة: **الحروب الاستباقية**:

ويبدو أن الدافع الديني كان حاضرًا أيضًا في الحروب الاستباقية التي شهدها العالم في العقود الأخيرة. لقد اتخذ الغربُ الإسلامَ عدوًّا فور انهيار الاتحاد السوفييتي، وتعددت تصريحات ومواقف الغربيين من الساسة والنخب وواضعي الاستراتيجيات التي تؤكد ذلك.

استخدم الأمريكيون الدين لإعطاء صبغة عقائدية للروح العدوانية، ووجد الأمريكيون المحاربون بغيتهم في تفسيرات شاذة ومحرفة لبعض ما ورد في الكتاب المقدس؛ لإضفاء المشروعية الأخلاقية على الرغبة في الصراع مع الآخرين.

كان وصف الرئيس الأمريكي بوش لحروب أمريكا بأنها صليبية دليلاً على استخدام العقيدة في تحريك الحروب ضد المسلمين. قبل أحداث سبتمبر قال جورج دبليو بوش في خطاب تنصيبه: «إنه حظي باختيار الله له لتوجيه قوات أمريكا العسكرية؛ لتكون أداة إلهية مكرسة لجلب الحرية والديمقراطية لأمم العالم». (١١)

لم يُخْف المحافظون الجدد الذين وصلوا إلى قمة السلطة في الولايات المتحدة ميولهم الدينية، ولم يخجلوا من إعلان مواقفهم، وهم يستخدمون تحريفات لأسفار الرؤيا؛ لإضفاء الشرعية على حروبهم المدمرة.

بحور الدم حتى تصل إلى قرب ألجمة الخيول. ولن ينتهي الصراع هناك: فستدمر كل مدن الأمم بفعل الأسلحة المدمرة، والتي سوف تحرق الأرض وتمزقها إربًا. ولن يعود المسيح إلى الأرض إلا إذا بدت، وكأن الحياة فيها ستنعدم، عندئذ يعود لإنقاذ من تبقى، وعندئذ يبدأ حكم القديسين في الألف سنة الموعودة» (١٢)، أي أن المسيح لن ينزل إلى الأرض إلا بعد تخريبها؛ في ظنهم.

لقد بذل بعض دعاة الأصولية الأمريكية جهودًا كبيرة لإعطاء تأويلات معاصرة لهذه الأفكار، سواء في سفر الرؤيا أو غيره. ومن هذه التأويلات أن «المرحلة الأولى من هذه الحرب ستبدأ حينما

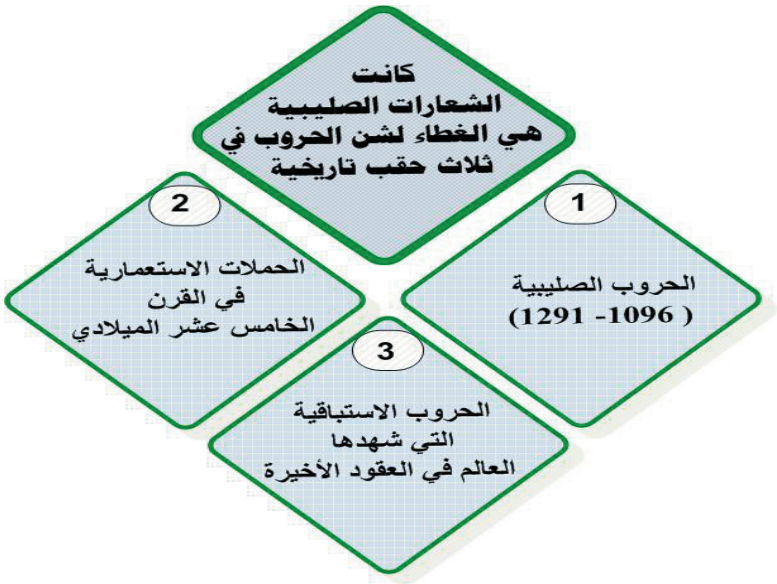

يعتقد المحافظون الجدد وبعض الأصوليين البروتستانت أن الحروب ودمار العالم شرط للعودة الثانية للمسيح، كما ورد في سفر الرؤيا، وهم يعملون من أجل المعركة الكبرى بين قوى الشر وقوى الخير، والتي يطلقون عليها «هرمجدون»، ويدَّعون أن مكانها يقع في منطقة جبل مجيدو في القدس.

وفق تفسيرات الكتاب المقدس لمعركة هرمجدون فإن ميدان المعركة «سيكون واسعًا لدرجة أنه سيغطي مئات الأميال شمال القدس وجنوبها، وسترتفع

يشن التحالف العربي الإفريقي الذي يُدْعَى (ملِك الجنوب)، هجومًا شاملاً ضد إسرائيل. أما المرحلة الثانية، فهي غزو كامل لإسرائيل والشرق الأوسط، تقوده روسيا، والتي تُدعى (ملِك الشمال) في دانيال [١١: ٤٠-٤٥] والدول التابعة لها». (١٣)

تشكل مثل هذه الأفكار التي تدعو للحرب عقلية الأصوليين الأمريكيين، منذ نزول الأجداد على الأرض الأمريكية، وبسببها تم القضاء على الأمة الهندية. يكشف التاريخ الأمريكي عن إبادة ملايين

الهنـود الحمر على أيـدي المهاجريـن الأوائل. وإذا تركنا التاريخ القديـم للمهاجرين الأمريكيين نجد أن التاريـخ الحديـث لا يقل بشـاعة، خاصة مـع التطور الذي صاحب صناعة السلاح والتدمير.

منـذ إمسـاك الأمريكييـن الأنجلوساكسـون البروتسـتانت بقيادة الغـرب بلغ مجمـوع العمليات العسـكرية الأمريكيـة «منـذ عـام ١٩٧٥ وحتـى ١١ سـبتمبر ٢٠٠١، أي خـلال ٢٦ عامًـا مـا يفوق ١٦٠ عمليـة» (١٤). بواقـع عمليـة عسـكرية كل شـهرين. وهـذه العمليـات تشـمل القتـال، أو الانتشـار تحت شعارات أخرى.

ربمـا كانـت الحـرب البـاردة توجـد مبـررًا لهذه العمليات العسـكرية، لكن ما يثير الاندهـاش أن معـدل الحـروب الأمريكية تسارع بعد انهيار الاتحاد السوفييتي، فالعمليات «التي نفذت منذ سـقوط حائط برليـن فقط عام ١٩٨٩، كانت مائة عملية بين ذلك الحين، وحتى ١١ سبتمبر٢٠٠١، بمعـدل عمليـة واحـدة كل شـهر تقريبًا، أي ستة أضعاف معدل العمليات التي أنجزت بين عامي ١٩٧٥ وحتى ١٩٨٩». (١٥)

إذا تـركـنـا الـتـاريـخ الـقـديـم للمهاجرين الأمريكيين نجد أن التاريخ الحديث لا يقل بشاعة، خاصة مع التطور الذي صاحب صناعة السلاح والتدمير

ويتضـح من هـذه المراحـل الثـلاث أن الدين كان مؤثرًا في القرارات السياسـية، حتى وإن تداخلت معه عوامل أخرى، اقتصاديـة أو اجتماعية. ويتبين أن كل مرحلة من تلك المراحل كانت تمثل صعودًا دينيًا في الغرب. في المرحلة الأولى كانت الكاثوليكية هي دين الغرب، والثانية تقاسـمها الكاثوليك والبروتستانت، والثالثـة كانت البروتسـتانتية الأنجلوساكسـونية هي المذهب المسيطر.

ولكـي نفهم علاقـة الدين بالسياسـة فـي الغرب، نحتاج إلى العودة إلى التاريخ، لنرصد التحولات التي أحدثها الدين في تشـكيل الغـرب، وأيضًا لنقف على حقيقة التغيـرات التـي أحدثها الساسـة الغربيون في فهم النصرانية، وكيف أصبح الدين والسلطة الدنيوية يسيران جنبًا إلى جنب، يستغل كل منهما الآخر، رغم ما قد يبدو للبعض من انفصالهما.

ثانيًا: الدين وتشكيل أوروبا:

اعتنق الرومـان النصرانية لتوحيد الإمبراطورية بعد التمزق الذي أصابها، فقد كانت في صراع مع مواطنيها النصـارى، وكانـت هـذه الملاحقـة تسـتنزف قوتها وتهدد استقرارها، وتضعف الإمبراطورية في مواجهة خصومها المحيطين بهـا. كان اعتناق روما للنصرانية وصياغتهـا بما يخدم الإمبراطورية هو الخيار الأمثل. وقد سـاعد دمـج الديانة بسـلطة الدولة فـي مد عمر الإمبراطوريـة ، وإطالة بقائها فترة ليست بالقصيرة.

أصبحـت النصرانيـة ديانـة الإمبراطورية مع تنصر الإمبراطور الرومانـي قسـطنطين الكبيـر (٢٧٥م-٣٣٧م)، والـذي ترتـب عليـه تغيـر سياسـة الإمبراطورية من مطـاردة المسـيحية واضطهاد أتباعها إلى الرعاية والتشـجيع، وقد أفاد هذا التحول فـي تقويـة الحكـم المترامـي الأطـراف، وسـاعد قسطنطين في بسط سلطته على أوروبا.

فـي عـام ٣١٣م أتـاح قسـطنطين حريـة العبـادة للنصارى، و«اعترف بشـرعية الكنيسة النصرانية، كما أرجع للنصارى الملكية التي سـلبت منهم.. وفي عام ٣٢٤م جعل القسـطنطينية عاصمته ومركزًا للحكومة الرومانيـة. وفـي عـام ٣٢٥م تـرأس قسـطنطين أول مجلس عالمي للكنيسة النصرانية في نيقية، وهي الآن في شمال غرب تركيا». (١٦)

سـاهمت الديانـة فـي وحـدة الشـعوب الأوروبية الخاضعـة للإمبراطوريـة، و«كان الديـن الكاثوليكي هو أسـاس التجانـس والانصهـار، والربـاط الوحيد بيـن دول ومقاطعـات أوروبـا الغربيـة، قبـل تكوين

الدولة القومية، وكانت الإمبراطورية الرومانية تحكم جنسيات مختلفة تجمع بينها الرابطة الكاثوليكية. ولم يكن الأوروبيون يكترثون لوجود أسرٍ حاكمةٍ تنحدر من جنسيات وأصول مختلفة، طالما كانوا يتبعون المذهب الكاثوليكي». (١٧)

ولم يكن الأجنبي هو «المختلف جنسًا أو لغة، وإنما هو الكافر الذي يتبع دينًا آخر، أو المنشق عن الكنيسة الكاثوليكية. ولذلك فعندما أرادت قبائل الجرمان الاستيلاء على أجزاء من الإمبراطورية الرومانية اعتنقوا الكاثوليكية، مما سهَّل لهم الاندماج مع أهالي البلاد المفتوحة والسيطرة عليها» (١٨)، أي أن لجوء السلطات الدنيوية إلى الدين لم يكن لأسباب إيمانية بالضرورة، وإنما لدوافع نفعية ومصلحية أحيانًا كثيرة؛ لاستخدام الدين كواجهة لتوطيد السيادة، وكمظلة أخلاقية توفر المشروعية للأهداف السياسية.

دب التنازع والشقاق والضعف داخل الإمبراطورية الرومانية، مع سقوط آخر إمبراطور روماني في عام ٤٧٦م، حينها «انقسمت الإمبراطورية إلى قسمين: الإمبراطورية الشرقية، والإمبراطورية الغربية. هذه الأخيرة استولى عليها رؤساء القبائل الجرمانية، وتقسمت إلى ممالك صغيرة، بينما بقيت الإمبراطورية الشرقية فيما يعرف بالإمبراطورية البيزنطية حتى عام ١٤٥٣م، حينما استولى العثمانيون على عاصمتها القسطنطينية». (١٩)

وقد اعتنقت الإمبراطورية البيزنطية المذهب الأرثوذكسي الذي لا زال حتى اليوم يشكل ديانة روسيا واليونان وصربيا والبلقان. وفي المقابل بقيت الكنيسة الغربية في روما على التزامها بالمذهب الكاثوليكي، وتبعها النصارى في وسط وجنوب غرب أوروبا، وبشكل أساسي في إيطاليا وفرنسا وأسبانيا والبرتغال.

مع سقوط الإمبراطورية الرومانية الغربية دخلت أوروبا فيما عرف بعصور الظلام التي استمرت نحو ألف عام. في هذه القرون سيطرت الكنيسة الكاثوليكية على مقاليد الأمور، وهيمنت على الشعوب الأوروبية دينيًا وسياسيًا. وكان البابا هو القائد الديني والدنيوي المهيمن على الغرب.

سيطرت الكنيسة على الأراضي وصادرت الممتلكات، وأصبحت مثالاً للمادية والطمع، ووضعت يدها على الثروة، وكانت الكنيسة الألمانية أغنى الكنائس في العالم المسيحي، ويقدر البعض أن «ما يقارب من ثلث الأراضي في البلاد كان بين أيدي الكنيسة». (٢٠)

أمام هذا الفساد الديني جاءت شرارة الاحتجاج من ألمانيا، حيث بدأ الراهب الألماني مارتن لوثر يهز عرش البابوية، ويعترض على انحرافات الكنيسة، ويرفع صوته متحديًا البابا، معلنًا ضرورة الإصلاح الكنسي. وكانت المذكرة الشهيرة التي علقها لوثر على باب كنيسة فتنبرج ١٥١٧م ضد فساد الكنيسة، بدايةً للانقسام الكبير داخل المسيحية، والذي كان انقلابًا نتج عنه ولادة المذهب البروتستانتي، وتقسيم الغرب. فقد تضمنت هذه المذكرة ٩٥ بندًا، تفند أخطاء الكنيسة، وتنتقد ممارساتها المتعلقة بصكوك الغفران، واحتكار البابا لتفسير الكتاب المقدس، والانحرافات الأخلاقية، وجمع الأموال وغيرها.

بعد لوثر، ظهر جون كالفين الذي ترك العمل بالقانون ليحدث نقلة واسعة لحركة الاحتجاج البروتستانتي بإقامة حكم ديني لمدة ربع قرن في مدينة جنيف السويسرية، طبق فيها أفكاره بشكل عملي. ما كان لهذه الحركة الانشقاقية داخل الكنيسة الغربية أن تنتشر لولا انضمام النبلاء والأمراء لحركة الاحتجاج، وكان لغضبهم أسباب أخرى، تتعلق برغبتهم في الاستيلاء على أموال الكنيسة الكاثوليكية ومصادرة ممتلكاتها. هؤلاء النبلاء هم الذين وقفوا مع مارتن لوثر في ألمانيا، وهم الذين ساندوا جون كالفين في حكم جنيف، والذي انتشر مذهبه بعد ذلك في الشمال الغربي لأوروبا.

ثمة ملاحظة جديرة بالاهتمام، وهي بروز دور جون

كالفيـن فيما بعد على حسـاب مارتن لوثر، وانتشـار أفكاره على نطاق واسع.

إن لوثر هو قائد الثورة ضد البابوية لكن جون كالفين كان لـه التأثيـر الأكبر في بلـورة العقيدة التـي يعتنقها معظم البروتسـتانت. من أسـباب ذلـك أن لوثر ربط ثورته بالقوميـة الألمانية، بينما لم يكـن جون كالفين قوميًّا، فقد حرص على نشر أفكاره خارج بلده فرنسا، وحكم «كالفين» جنيف التي أرسـل منها مبعوثيه إلى الدول الاسكندينافية وهولندا وإنجلترا لنشر أفكاره.

و«على العكس من لوثر، الذي اقترح أنه ينبغي على المسيحيين أن يقبلوا النظام الاجتماعي الموجود، دعا كالفين أتباعه لأن يكونوا فاعلين، وأن يعيدوا تشـكيل المجتمع والحكومة لكي تعمل وفقًا للقوانين الإلهية التي وردت في الكتاب المقدس». (٢١)

وعلـى الصعيـد السياسـي والاقتصادي، اسـتطاع كالفيـن أن يزاوج بين العقيدة الجديدة والرأسـمالية، من خـلال الاعتماد على رجال الأعمـال في حكمه. وهـذه الأفـكار كانت مناسـبة للمجتمـع الأمريكي، لقـد «كانـت الجمهورية الأمريكية – في الأسـاس – جمهورية مُلّاك». (٢٢)

وقامـت الكالفينيـة بتحويـل أمريـكا إلـى مجتمع رأسمالي «يقدس العمل الدنيوي بوصفه واجبًا دينيًّا، ويقدس الثروة بوصفها ثمرة من ثمار النعمة». (٢٣)

بـل إن داعيـة التلفزيون الإيفانجليكـي (٢٤) جراي باويـر يرى «أن انتشـار الرأسـمالية الأمريكية والدين الأمريكـي عبر العالم، يعد مؤشـرًا على اقتراب نهاية التاريخ، وعلى اقتراب تفويض يسوع المسيح بتنصير كل الأمم قبل نهاية الزمان». (٢٥)

ومـن العوامل الفاصلـة التي أعطت البروتسـتانتية دفعـة قويـة قـرار الملـك هنـري الثامن بقطـع علاقة كنيسـة إنجلتـرا مـع البابوية، وتنصيب نفسـه رئيسًـا للكنيسة الإنجليزية، بسبب رفض البابا تطليق زوجته، والسماح له بالزواج بأخرى، الأمر الذي فتح المجال للمذهب الجديد ليكون العقيدة المهيمنة على بريطانيا ثم أمريكا الشمالية بعد ذلك.

تواصَـل الصـراع بين بابويـة تكافـح للحفاظ على سـيطرتها وزعامتهـا الدينيـة والسياسـية؛ وكنائـس بروتسـتانتية تفرض وجودها كحركة إصلاحية داخل المسـيحية، وتطور الصراع إلى صـدام وحروب بين الكاثوليـك والبروتسـتانت اسـتمرت عقـودًا طويلة أشـهرها حرب الثلاثين عامًا. فقد قامت هذه الحرب «بيـن عامـي ١٦١٨- ١٦٤٨ ، وحدثـت وقائعهـا بشـكل عـام في أراضـي ألمانيا، وقد تدخـل في هذه الحـرب معظـم القـوى الأوروبيـة الموجـودة فـي ذلك العصر». (٢٦)

بعد هـذه الحـروب الدامية خـرج الأوروبيون من القرن السـابع عشر مستنزفين، وتقسـمت أوروبا بين الكاثوليك والبروتسـتانت. جمد الطرفان صراعاتهم مؤقتًـا داخـل أوروبـا، وتنافسـا خارجها فيمـا عُرف بالكشـوف الجغرافيـة التـي كانـت مقدمـة لخروج الجيـوش الأوروبية حاملة السـتار الدينـي والمطامع الاقتصادية لاستعمار العالم.

كان التنافـس بيـن أتبـاع المذهبيـن واضحًـا فـي الحركـة الاسـتعمارية حـول العالـم، لكنه بـدا أكثر جلاء في القارتين الأمريكيتيـن؛ حيث اتجه الإنجليز البروتسـتانت بشـكل أساسـي إلى أمريكا الشمالية، بينمـا اتجـه الأسـبان والبرتغاليـون الكاثوليـك إلى أمريكا الجنوبية.

تميزت الانطلاقـة البروتسـتانتية بارتباطها بالعرق الأنجلوساكسـوني. هـذا العـرق الـذي اسـتطاع في القرون الثلاثـة الأخيرة أن يملك زمـام جزء كبير من قيادة الغرب، ويسـعى للسـيطرة علـى العالم، خاصة بعد خلو الساحة من أي خصم قوي.

ثالثًا: البروتستانتية وتأسيس أمريكا:

مـع اكتشـاف الأمريكتيـن تدفـق الأوروبيـون إلى الأراضي الجديدة. تركزت هجرة الأنجلوساكسـون علـى شـرق القـارة الشـمالية، وأقـام «البيوريتـان» أول مسـتعمرة لهـم على خليـج ماساتشوسـتس في عام ١٦٣٠م.

البيوريتان أو التطهريون (اسم مشتق من puritan ، وهي كلمة تعني الطهر والنقاء في اللغة الإنجليزية) وهم «البروتستانت الذين أرادوا تطهير كنيسة إنجلترا، خلال الحكم العدائي للملك جيمس الأول وشارلز الأول؛ حيث رأى كثير من البيوريتان أنه من الأفضل لهم الذهاب إلى مكان آخر لممارسة معتقداتهم».(٢٧)

كان وصول البيوريتان الإنجليز إلى الشاطئ الأمريكي في الرحلة الأمريكية الشهيرة على مركب ماي فلاور هو البداية لتأسيس الدين في العالم الجديد. لقد كان البيوريتان ينظرون إلى أنفسهم من منطلق خاص بهم. فعلى غرار الخروج الجماعي في العهد القديم، والذي هرب فيه بنو إسرائيل من مصر، ورحلوا إلى الأرض الجديدة، نظر البيوريتان لأنفسهم على أنهم الشعب المختار الجديد، ونظروا إلى العالم الجديد على أنه إسرائيل الجديدة.

اعتقد البيوريتان «أنهم يقومون بالدور الأخير في التاريخ البشري، وراحوا يؤيدون هذا المعتقد باستشهادات كثيرة من الكتاب المقدس، فاعتبروا أمريكا كنعان الجديدة، وعلى هذه الأرض الأمريكية ستقام الألفية التي يسود فيها السلام». (٢٨)

تجاوز تأثير البيوريتان مستعمرة خليج ماساشوستس، وتمدد وتوسع إلى معظم المستوطنات الأخرى. والثابت تاريخيًا أن «أكبر تأثير على التطور السياسي والديني لأمريكا جاء من بيوريتاني مستعمرة ماساشوستس» (٢٩)، كانت المستعمرات تابعة سياسيًا للتاج البريطاني في البداية، فقد «سيطرت الإمبراطورية البريطانية في نهاية القرن السابع عشر على جميع المستعمرات».(٣٠)

ومع تدفق المزيد من المهاجرين الأوروبيين إلى أمريكا لم يعد الانغلاق البروتستانتي البيوريتاني ملائمًا، خاصة مع تمرد المستعمرات، وعدم قبول المستعمرين الجدد الخضوع لكنيسة إنجلترا. حدثت تنازلات فرضها الواقع، وخففت من مسألة التعصب ضد المذاهب الأخرى، واضطرت الكنيسة إلى ضم أشخاص ما كان يسمح لهم سابقًا بمقتضى المعايير البيوريتانية القديمة.

وتطورت الأفكار البروتستانتية لاحتواء الآخرين، دون تنازل البروتستانت عن القيادة السياسية والدينية، إلى أن تحقق لهم الاستقلال الكامل عن بريطانيا. ولعبت الكنائس ورجال الدين في الثلاث عشرة مستعمرة بأمريكا الشمالية دورًا حيويًا في الثورة الأمريكية وحروب الاستقلال.

رغم الفصل بين الدولة والكنيسة في الدستور الأمريكي، فإن الإشارات الدينية والتصريحات العقائدية تكاد تكون سمة مميزة لكثير من خطابات الرؤساء الأمريكيين

تداخلت الدوافع الدينية مع القضايا السياسية والاقتصادية. ومع ذلك «أدى عاملان محددان لهما علاقة مباشرة بالمؤسسات الدينية إلى التوتر بين المستعمرين وبريطانيا:

أولاً: خوف بعض المستعمرين من قيام بريطانيا بتعيين أسقف بروتستانتي إنجليزي للمستعمرات. كان هناك أناس كثيرون يخشون مثل هذا التحكم الخارجي في المؤسسات الدينية.

ثانيًا: تسبب قانون كويبك عام ١٧٧٤ في حدوث ضجة بين العديد من المستعمرين، فبعد كسبهم كويبك من الفرنسيين؛ نتيجة للحرب الهندية والفرنسية، توصل البريطانيون إلى اتفاق مع سكان كويبك الكاثوليك الفرنسيين؛ منح هذا الاتفاق درجة من الاستقلال للكاثوليك، كما منحهم نفس الوضع الذي يتمتع به الكاثوليك في البلاد الكاثوليكية في أوروبا. ورأى العديد من المستعمرين البريطانيين هذا كتأسيس لدين مُعَادٍ في المنطقة». (٣١)

استغل القادة الوطنيون الدين لإعطاء الثورة على

الاستعمار البريطاني الهوية الدينية؛ خاصة أن العنصر البروتستانتي في سكان المستعمرات كان هو الغالب. مع ما قد يبدو من تيارات علمانية تختلف بنسب متفاوتة حول بعض القضايا، فإن البعد الديني العام في الولايات المتحدة كان واضحًا في الوثائق التأسيسية للأمة كوثيقة الاستقلال والدستور الأمريكي، وتم تعزيزه من خلال الخطب الرئاسية.

رغم الفصل بين الدولة والكنيسة في الدستور الأمريكي فإن الإشارات الدينية والتصريحات العقائدية تكاد تكون سمة مميزة لكثير من خطابات الرؤساء الأمريكيين منذ الآباء المؤسسين للدولة الأمريكية وحتى الآن.

ومنذ إعلان الاتحاد فإن العائلات الأمريكية البروتستانتية الكبرى كانت موجودة ومؤثرة في المناصب السياسية؛ حيث «ترتكز السيطرة الثقافية الواضحة للبروتستانت على قاعدة متينة من العائلات والمؤسسات الأمريكية الأكثر ثراء وعراقة.

عادة ما كان البروتستانت هم الأوائل في الاستيطان في كل مكان - تقريبًا - داخل المستعمرات الأمريكية، وكان من الطبيعي للغاية أن يستحوذ ورثتهم على معظم مواقع النفوذ والتأثير». (٣٢)

ظل الدين مكونًا هامًّا للمجتمع الأمريكي منذ التأسيس وحتى الآن، وكان منحنى الأصولية الأمريكية يزيد وينقص، لكن ما يهمنا في هذه الدراسة هو التركيز على تصاعد الاهتمام الديني مؤخرًا، والذي بدأ منذ السبعينيات، نظرًا لما ترتب عليه من تأثير مباشر ومتواصل على العالم الإسلامي.

تنامت الحركة الأصولية كرد فعل للتطورات السياسية والاجتماعية التي شهدتها أمريكا خلال فترة الستينيات، وشهدت تلك الفترة سقوط هيبة الدولة مع سقوط نيكسون الرئيس الأمريكي في فضيحة التجسس، وسقوط هيبة الأسرة والمجتمع مع شيوع الانحلال والفساد الأخلاقي؛ بسبب الموجة الليبرالية والشيوعية، وأيضًا سقوط صورة الترابط الاجتماعي مع ثورة السود التي قادها مارتن لوثر كنج، والتي نجحت في إلغاء التمييز العنصري، ويضاف إلى ذلك سقوط الهيبة العسكرية؛ بسبب النتائج الكارثية لحرب فيتنام. يضيف البعض إلى ما سبق فوز جون كينيدي كأول رئيس كاثوليكي يصل إلى هذا المنصب الذي يحتكره البروتستانت، وقد قتل كينيدي ولم يكمل مدته، ولا تزال علامات الاستفهام الكثيرة تحيط بهذا الاغتيال.

بدأت التوجهات الدينية الأمريكية تظهر بوضوح حتى باتت من أبرز معالم السياسة الأمريكية، خصوصًا مع فوز الرئيس الأمريكي جيمي كارتر في السبعينيات وهو الذي عُرف بالتدين، وفوز رونالد ريجان في الثمانينيات والذي عُرف باهتمامه بالتقاليد المحافظة ودور الدين في استعادة هيبة أمريكا عالميًّا، وبلغت القمة مع بداية الألفية الثالثة عندما سيطر المحافظون الجدد على السلطة في كل أنحاء الولايات المتحدة الأمريكية، وتنصيب جورج دبليو بوش رئيسًا.

إن سيطرة المحافظين الجدد على السلطة والتحكم في مفاصلها لم يتم من فراغ، وإنما جاء بعد فترة من العمل المنظم، كان أهم أسلحتهم التي أجادوا استخدامها هو الإعلام

إن سيطرة المحافظين الجدد على السلطة، والتحكم في مفاصلها لم يتم من فراغ، وإنما جاء بعد فترة من العمل المنظم، كان أهم أسلحتهم التي أجادوا استخدامها هو الإعلام.

فقد «أسس القادة المحافظون شبكات الراديو والتلفزيون الخاصة بهم من أجل بث البرامج الدينية. أصبح الملايين من المحافظين والأصوليين البروتستانت مشاهدين بشكل منتظم، ثم أعضاء، وأخيرًا من مانحي المعونات لتلك البرامج» (٣٣)، وقد

استفاد المحافظون الجدد من تنامي التيار المحافظ، وحاولوا الركوب على هذه الموجة الدينية.

قاد هذه الحركة الدينية مجموعة من الوعاظ التلفزيونيين البارزين، وأهمهم جيري فالويل، وبيلي جراهام، وأورال روبيرتس، وبات روبرتسون، وجيمي سواجارت وآخرون.

مع تزايد الأنصار، واتساع القاعدة الشعبية زاد نفوذ الوعاظ الأصوليين الذين يبثون برامجهم عبر التلفزيون، وتوسعت شعبيتهم، «الأمر الذي أتاح لبيلي جراهام الحصول على أول لقاء مع رئيس أمريكي، خلال فترة حكم ترومان في عام ١٩٥٠م. وبعد هذا اللقاء الأول كانت تتم دعوته بشكل متكرر إلى البيت الأبيض لمقابلة الرؤساء المتعاقبين: أيزنهاور، وجونسون، ونيكسون». (٣٤) واستمر بيلي جراهام كرجل الدين للرؤساء جميعهم حتى بداية فترة جورج بوش الأخيرة.

يرجع لهؤلاء الوعاظ الفضل في إحياء الحركة الأصولية الأمريكية في النصف الثاني من القرن العشرين. وشكَّلوا ما أطلق عليه الكنيسة الإلكترونية التي كانت مع نهاية عقد التسعينيات تضم «شبكة تكونت من ١٣٠٠ محطة راديو وتلفزيون، تدعي أن لديها جمهورًا يصل إلى ١٣٠ مليون مشاهد، وتفتخر بأن أرباحها تتراوح ما بين ٥٠٠ مليون دولار إلى البلايين من الدولارات». (٣٥)

سعى القادة الدينيون إلى التأثير على السلطة ولم يصطدموا معها، و«أظهر الأصوليون الأمريكيون مستوى عالٍ من النضوج، وتبنوا سياسة ترمي، ليس فقط لعدم تحدي النظام، ولكن في الواقع أن يصبحوا جزءًا منه، ومن ثم استخدامه لمصلحتهم». (٣٦) بالمقابل حرص القادة السياسيون على التواصل مع قادة المحافظين، للحصول على الأصوات في الانتخابات. فقد «جلب نيكسون رجال الكنيسة للبيت الأبيض خلال فترة رئاسته، حيث كانت تقام الصلوات بشكل معتاد في الحجرة الشرقية». (٣٧)

وجاء جيمي كارتر الذي أعلن عن نفسه بوصفه «ولد من جديد» (٣٨) ، وهو رجل دين «قام بالتدريس في مدرسة الأحد بشكل منتظم في الكنيسة المعمدانية الأولى بواشنطن خلال سنوات حكمه بالبيت الأبيض». (٣٩) بعد كارتر رأينا «الأصوليين المسيحيين، وهم يكتبون البرنامج الانتخابي للأجندة الاجتماعية لرونالد ريجان، وقد حاول ريجان بكل جهده تحقيق العديد من هذه الأهداف. والآن لدينا جورج بوش الذي قام بفضل المناخ العام الذي هيَّأه الأصوليون المسيحيون، بشن حملته الانتخابية بقوله: إنه كان يستجيب لاستدعاء إلهي». (٤٠)

ولم يختف الميل إلى استغلال الدين عند الرؤساء الأمريكيين، حتى الأشد علمانية منهم، فالرئيس كلينتون صاحب الفضيحة الأخلاقية الشهيرة، والذي يعد من أعداء الأصوليين قال في خطابه الافتتاحي سنة ١٩٩٧: «استرشادًا بالرؤية القديمة لأرض الميعاد، دعونا نوجه أبصارنا إلى أرض ميعاد جديدة». (٤١)

توضح مثل هذه الإشارات الرمزية المستقاة من العقيدة البروتستانتية أن القادة الأمريكيين بمختلف اتجاهاتهم يشعرون بالاستثنائية، وبالتميز عن باقي شعوب العالم؛ إذ تسيطر عليهم مشاعر الأفضلية المستمدة من أسطورة الشعب المختار التي شغلت الغربيين في السابق، ولا زال تأثيرها ساريًا، وإن كان بصيغ أخرى.

رابعًا: أسطورة الشعب المختار:

سيطرت فكرة الشعب المختار على الأوروبيين، وبسبب هذه الفكرة تعاملوا مع باقي الشعوب بعنصرية وبنظرة فوقية متعالية، إن فكرة الشعب المختار قديمة، تنازعها اليهود وأتباع المذاهب النصرانية.عندما اعتنقت أوروبا النصرانية، اعتبرت الكنيسة كل من يتبعها هم شعب الله المختار، ولا خلاص لأحد إلا بالخضوع لسلطة البابا، فالكاثوليك حتى زمن هنري الثامن اعتقدوا أنهم قد «أخذوا من اليهود مكانة شعب الرب». (٤٢)

وبسبب هذا الاختيار اضطهد الكاثوليك اليهود، ثم مارسوا أشد أنواع الاضطهاد ضد البروتستانت، وابتدعوا فكرة حرق الهراطقة، والتي بلغت ذروتها في محاكم التفتيش، التي اكتوى بها -بجانب المسلمين- اليهود والنصارى الخارجون على قوانين البابوية.

هذه الفكرة هي التي جعلت الأسبان يرتكبون جرائم الإبادة في المستعمرات، والتي «جعلت أحد البابـاوات يتساءل: ما إذا كان الهنود يتمتعون بروح كالبيض؟». (٤٣)، وتعتبر «فكرة الشعب المختار أكثر الأفكار دموية في التاريخ، فقد أوحت إلى البيوريتان البروتستانت الإنجليز الذين وصلوا إلى أمريكا باستئصال الهنود». (٤٤)

مع ولادة البروتستانتية ادعى البروتستانت أن صفة الاختيار انتقلت إليهم، ودارت الدائرة على الكاثوليك مثلما تم مع اليهود؛ إذ «بعد الإصلاح الديني صارت ممارسة الكاثوليكية جريمة خطيرة في إنجلترا، وكانت عقوبة أن تكون قسيسًا كاثوليكيًا هي الشنق والسحل وتقطيع الأطراف الأربعة». (٤٥)

وأسند البروتستانت الشر كله للكاثوليك، وأصبح «المذهب الكاثوليكي الروماني مؤامرة يقودها البابا لصالح الديانة الوثنية، والحكومة الفردية المستبدة الطاغية». (٤٦)

ومع الزمن انتقلت صفة الشعب المختار من الديانة إلى العرق، ففي القرن السابع عشر «كان الاقتناع بأن الحضارة الإنجليزية تسمو فوق أية حضارة أخرى مرتبطًا بشكل وثيق مع فكرة أن الإنجليز هم شعب الله المختار». (٤٧) بل إن الإنجليز اعتقدوا أن «من يتحدى الرب يتحدى إنجلترا، ومن يتحدى إنجلترا يتحدى الرب» . (٤٨)

إن «كون إنجلترا الشعب المختار لم تكن تعني فقط أن لديهم حضارة أسمى وديانة أرقى، وإنما كانت بالنسبة للإنجيليين الذين كان لهم نفوذهم في السياسات الإنجليزية أمرًا لا يقل عن تحقيق نهاية الزمان وإقامة حكم الرب. وربما تكون إسرائيل القديمة عصا الخلاص في الأيام الباكرة قبل المسيح، بيد أن هذه العصا مودعة الآن في لندن بالتأكيد». (٤٩)

بل إن هذه النسخة المتطرفة لمثل هذا التفكير الأسطوري تمثلت فيما يسمى حركة الإسرائيليين البريطانيين، في القرن التاسع عشر بزعمها «أن البريطانيين كانوا نسلاً حقيقيًا جينيًا للقبائل الأسطورية العشر المفقودة من بني إسرائيل». (٥٠)

ثم تطورت فكرة الشعب المختار، وتحولت من العرق والمذهب إلى العرق والمذهب والجغرافيا مع انتقال البيوريتان الإنجليز إلى أمريكا؛ حيث انتقلت من بريطانيا إلى أمريكا، إلى المستعمرين الجدد، إلى الأراضي الأمريكية، حيث توافد البيوريتان الذين أسسوا أمريكا، واتفقوا على أنها كنعان الجديدة، وأن الأنجلوساكسون الأمريكيين هم شعب الله المختار المؤيد لإقامة مدينة الرب على الأرض.

لقد «تغلغل معنى الشعب الإلهي المختار في الخيال الأمريكي، واتخذ مسميات مختلفة. أسلوب الحياة الأمريكي، والقدر المبين، وتحولت الفكرة مع العلمانية المعاصرة إلى الاستثنائية الأمريكية؛ حيث يشعر الشعب الأمريكي دائمًا أنه «استثناء من كل قواعد الكون، وأنه قادر على القيام بما يراه الآخرون مستحيلاً. ولذلك نشأت فكرة الاستثنائية في العقل الجمعي الأمريكي، وما يصاحب ذلك من الرغبة المستمرة في التجريب حتى إن كان ذلك يعني العبث بشعوب العالم». (٥١)

وهكذا فإن «تاريخ إنجلترا على مدى ما يزيد على أربعة قرون، وتاريخ أمريكا على مدى ما يزيد على ثلاثة قرون، هما قصة مجتمعين يعيشان تحت تأثير هذه الفكرة». (٥٢) مع هذا، ورغم الخلافات التي قد تبدو بين الإنجليز وإخوانهم الأمريكيين حول بعض القضايا، فإن العرق والمذهب جعلاهما يسيران جنبًا إلى جنب في مواجهة التحديات الدولية.

خامسًا: علاقة الدين بالأحلاف العسكرية:

منذ اشتداد عود البروتستانتية، واستقرارها كمذهب قائد ومتحكم في دول شمال غرب أوروبا، ثم انتقالها إلى أمريكا برز تكتل عقائدي ومحور ديني، يرتكز على المذهب والعرق الأنجلوساكسوني.

ومع توحد بريطانيا وتحولها إلى المذهب البروتستانتي، ثم صعودها الإمبراطوري في القرنين التاسع عشر والعشرين، أصبح الأنجلوساكسون هم قادة الغرب. وعندما بدأت الشمس تغرب عن المستعمرات البريطانية، وتراجعت السطوة الإنجليزية بانتهاء الحرب العالمية الثانية، انتقلت قيادة الغرب إلى الولايات المتحدة التي يقودها الأنجلوساكسون الجدد، وقام البريطانيون اضطرارًا بتسليم نفوذهم في قارات العالم إلى الأمريكيين.

مع انتقال قيادة الغرب من أوروبا إلى أمريكا بدا التحرك البروتستانتي الأنجلوساكسوني أكثر انسجامًا وتنظيمًا على الصعيد الدولي أواخر الأربعينيات من القرن الماضي. فقد بدأ الأنجلوساكسون يتحركون بقوة، وبدا واضحًا أن الدول الخمس التي تنتمي إلى هذا العرق، وتعتنق ذات المذهب تشكل عصبة فاعلة على صعيد العلاقات الدولية. وهذه الدول هي الولايات المتحدة الأمريكية، المملكة المتحدة، كندا، أستراليا، ونيوزيلندا. ورغم الصبغة البروتستانتية للدول الاسكندينافية، وألمانيا – بنسبة أقل – فإنهم ليسوا أعضاء في المحور الذي نتحدث عنه؛ لكونهم لا ينتمون للعرق الأنجلوساكسوني. وذات الأمر ينطبق على أيرلندا التي تنتمي إلى العرق الأنجلوساكسوني، ولكنها تدين بالكاثوليكية.

بمتابعة التطورات العالمية منذ الأربعينيات، نجد أن حكومات الدول الخمس التي تشكل المحور الأنجلوساكسوني البروتستانتي تتعاون بدرجة ملفتة للنظر في كل الحروب، وتتساند داخل المؤسسات الدولية مثل الأمم المتحدة وغيرها، وتتخندق معًا في التحالفات والحروب.

لقد أنشأ المحور البروتستانتي الأحلاف العسكرية المغلقة، أو بمشاركة دول أخرى دون التنازل عن القيادة والسيطرة. فقد أسست الولايات المتحدة وأستراليا ونيوزيلندا حلف الأنزوس في سبتمبر ١٩٥١م بزعم الدفاع عن منطقة المحيط الهادي؛ وُقِّعَتْ الاتفاقية في سان فرانسيسكو، وأصبحت سارية في ٢٩/ ٤/ ١٩٥٢، وكانت تهدف إلى حماية مصالح الدول الثلاث في منطقة الباسيفيك. يتكون مجلس إدارة هذا الحلف من وزراء الخارجية للدول الثلاث. (٥٣)

ثم أنشئ حلف جنوب شرق آسيا امتدادًا لحلف الأنزوس، الذي أسسته الولايات المتحدة والمملكة المتحدة وأستراليا ونيوزيلندا، وانضمت إليه كل من فرنسا وباكستان والفلبين وتايلند. وقد انسحبت باكستان بعد ذلك عندما رفض الحلف مساعدتها في حربها مع الهند عام ٧١.(٥٤)

مع انتقال قيادة الغرب من أوروبا إلى أمريكا بدا التحرك البروتستانتي الأنجلوساكسوني أكثر انسجامًا وتنظيمًا على الصعيد الدولي أواخر الأربعينيات من القرن الماضي

وبذات الدوافع وقف الأنجلوساكسون وراء حلف بغداد الذي أنشئ في ١٩٥٥ لمواجهة الاتحاد السوفييتي، وضم العراق (في عهد عبد الكريم قاسم) وتركيا بجانب بريطانيا، والذي رفضت الدول العربية خاصة مصر وسوريا الانضمام إليه؛ «لقناعة هذه الدول الصحيحة بأن مصدر الخطر الحقيقي على المنطقة يتأتى من إسرائيل وحلفائها، الذين يقفون وراء الحلف، وليس من الاتحاد السوفييتي الذي كان قد بدأ يصبح المزود الوحيد للدول العربية لمواجهة إسرائيل بالسلاح والعتاد،

والذي أقيم الحلف واقعيًّا لمواجهته دون سواه. ولم تنضم حكومة الولايات المتحدة إلى الحلف بصورة كاملة – في البداية– رغم أن دورها في التحريض على إنشائه أوضح من أن يُشرح، واقتصرت مشاركتها على الانضمام إلى عضوية لجنة مكافحة النشاط الهدام، وكذلك اللجنة الاقتصادية والعسكرية التابعة للحلف، وقد استمر ذلك حتى عام ١٩٥٩، وبعد ثورة العراق أصبحت أمريكا عضوًا عاملاً كامل العضوية في هذا الحلف».(٥٥)

رغم أن أجهزة الاستخبارات الغربية تتعاون فيما بينها، إلا أن دول المحور الأنجلوساكسوني لها ارتباطاتها المغلقة

وخشية النفوذ السوفييتي تحالف المحور البروتستانتي مع الدول الكاثوليكية، واتحدوا لمواجهة الاتحاد السوفييتي، وأنشأوا حلف الأطلنطي لمواجهة الشيوعية.

وكانت المظلة العسكرية لحلف الأطلنطي هي المدخل لهيمنة المحور الأنجلوساكسوني على دول أوروبا والغرب عمومًا، وتسخير الحلف وفقًا للسياسة العسكرية التي يضعها هذا المحور الديني، فمن وجهة نظر الولايات المتحدة «كانت الحرب ضد السوفييت حربًا صليبية خيرة صالحة ضد الشيوعية».(٥٦)، ورغم ما قد يبدو من خلافات بين الأمريكيين وباقي دول الحلف؛ فإن الولايات المتحدة –بسبب نفوذها والتأييد البريطاني– تجر الحلف للمشاركة في حروبها، وقد نجحت في توريط الحلف في معاركها بدرجات متفاوتة.

سادسًا: التعاون الاستخباري وأثر المذهب الديني:

رغم أن أجهزة الاستخبارات الغربية تتعاون فيما بينها، إلا أن دول المحور الأنجلوساكسوني لها ارتباطاتها المغلقة، الخاصة بها، والتي تعمل لتحقيق الاستراتيجيات التي تخدم مصالح هذا الحلف العقائدي.

يعد النظام الاستخباراتي «إيشلون» من المشروعات المشتركة التي يظهر فيها روح التنسيق المذهبي، فهو أهم المحطات التجسسية، التي تربط أجهزة الاستخبارات في دول المحور الأنجلوساكسوني، وهو أكبر نظام تجسس في العالم. هذا النظام يعترض المكالمات والفاكسات ورسائل البريد الإلكتروني، والاتصالات الهاتفية من خلال أكبر شبكة من الأقمار الاصطناعية وتكنولوجيا التجسس المتطورة. ومن الثابت أن عمليات «إيشلون» تغطي كافة أنحاء العالم، وطبقًا للتقارير، ومنها التقرير الذي أصدرته اللجنة التي شكَّلها الاتحاد الأوروبي، فإن «بإمكان إيشلون اعتراض وتعقب أكثر من ثلاثة بلايين عملية اتصال يوميًّا، وتشمل كل شيء من المكالمات الهاتفية العادية والجوالة، واتصالات الإنترنت، وانتهاء بالاتصالات التي تتم عبر الأقمار الاصطناعية». (٥٧)

ومن اللافت للنظر أن محطات إيشلون تنتشر في الولايات المتحدة وبريطانيا وكندا وأستراليا ونيوزيلندا. وإزاء تمدد هذه الشبكة وإمكاناتها شعرت الدول الأوروبية بالخطر والانزعاج، وتم تشكيل لجنة خاصة لدراسة الأضرار المترتبة على هذا النظام التجسسي. وقامت اللجنة بعد فترة من البحث والدراسة بإصدار تقرير في ٢٠٠١ أكد خطورة هذه الشبكة على الشعوب الأوروبية، وتعارضها مع الاتفاقية الأوروبية لحقوق الإنسان وتهديد الحياة الخاصة. ومن أبرز ما ركز عليه التقرير الأضرار الاقتصادية المترتبة على ما يجمعه هذه النظام التجسسي من بيانات ومعلومات اقتصادية حول الصفقات والأسواق بما يؤثر على المنافسة بين الشركات الأوروبية والأمريكية، وحذّر التقرير من عواقب تسريب هذه المعلومات إلى الشركات في الدول الخمس التي تدير هذه المحطة التجسسية،

واقترح التقرير الكثير من التوصيات لمواجهة هذا التجسس. (٥٨)

سابعًا: كيف نتعامل مع ظاهرة الصعود الديني في الغرب:

يعاني العالم الإسلامي من إشكالية عدم وضوح الرؤية في التعامل مع الغرب منذ ضعف وسقوط الخلافة. فالدولة الإسلامية عبر التاريخ كانت على دراية كاملة بمنافسيها، وعرفت كيف تتعامل معهم بالأسلوب الذي يجدي. لقد كانت الخلافة هي القوة الوحيدة التي استطاعت أن تردع أوروبا، وتمنعها من ممارسة ظلمها والتنفيس عن غريزة العداء ضد الآخرين قرونًا طويلة. ومع حالة انكسار الأمة الإسلامية، بدأ الغرب في تحقيق مكاسب على حساب المسلمين.

عقب غياب الخلافة الإسلامية، فُتح الباب أمام الحملات التنصيرية لنشر التعاليم النصرانية في العالم، ورغم أن الإسلام هو أسرع الأديان انتشارًا الآن، إلا أن التنصير المدعوم عسكريًّا وماليًّا نجح في القرنين الماضيين في الوصول إلى العديد من مناطق العالم الإسلامي وغير الإسلامي، وتنافست الطوائف النصرانية لاقتسام العالم، وأصبحت الإرساليات التنصيرية في كل الدول تقريبًا.

تشير الإحصاءات إلى أن نسبة المسيحيين في العالم تبلغ ٣٣,٠٣٪ (منهم ١٧,٣٣٪ كاثوليك، و٥,٨٪ بروتستانت، و٣,٤٢٪ أرثوذكس، و١,٢٣٪ إنجليكان) وتبلغ نسبة المسلمين ٢٠,١٢٪، والهندوس ١٣,٣٤٪، والبوذيون ٠,٨٩٪، السيخ ٠,٣٩٪، اليهود ٠,٢٣٪، ديانات أخرى ١٢,٦١٪، بلا دين ١٢,٠٣٪، ملاحدة ٢,٣٦٪. (٥٩)

وفي إحصائية أخرى، تمثل المسيحية ٣٣٪ من سكان العالم، يليها الإسلام بنسبة ٢١٪، ثم الذين لا يعتنقون أي دين ١٦٪، الهندوس ١٤٪، ديانات بدائية ٦٪، البوذيون ٦٪، ديانات صينية تقليدية ٦٪، اليهود ٠,٢٢٪، السيخ ٠,٣٦٪. (٦٠)

تقدر نسبة البروتستانت في دول المحور الأنجلوساكسوني بنحو ٣,٣٪ من سكان العالم، وتضم هذه النسبة طوائف بروتستانتية لا تتبنى الأفكار المتطرفة في تفسير الأطروحات الرؤيوية، وإذا أخذنا ما حصلت عليه إدارة بوش في انتخابات الرئاسة كمؤشر وهو نصف الأصوات + بضعة مئات، سنجد أننا أمام مجموعة محاربة تتراوح بين ١٪ : ٢٪ من سكان العالم، لكن يبدو من المشهد أن هذه المجموعة تحظى بتأييد الحكومات الغربية في حروبها ضد المسلمين، وإن كان بنسب متفاوتة للأسباب التي أشرنا إليها سابقًا المرتبطة بالنزعة العدوانية لهذه الحكومات بدافع من طبيعة الصراع قبل أن تكون بسبب العقائد التي يتبعونها.

إن دراستنا للغرب وفهم طبائع وعقائد الغربيين تساعد في بلورة استراتيجيات التعامل مع هذا الكيان بما يفيد الأمة، ويوفر الجهود التي تتبدد في اتجاهات شتى لا تفيد. وهذه الاستراتيجيات تحتاج إلى جهود جماعية لوضع تخطيط مؤسس على علم ودراسة.

وفي هذا الاتجاه فإننا نطرح بعض الأفكار التي تساعد في تشكيل استراتيجية واقعية للتعامل مع الغرب على النحو التالي:

١- تشكل الأفكار البروتستانتية المتطرفة خطرًا على المسلمين، بسبب العقيدة القائمة على إشعال الحروب من أجل العودة الثانية للمسيح. ولهذا فإن التيار الغربي المتطرف سيعمل على زيادة الاعتداءات الغربية التي ستتصاعد وستتسع رقعتها؛ لكونها ضرورة ولازمة لإقامة مملكة الرب كما يزعمون. وهذه العقيدة لا تعرف الحوار مع الآخرين؛ لكونها عقيدة محاربة تؤمن بالسلاح كحل وحيد في تعاملها مع الغير.

٢- يستفيد اليهود من تفوق الأنجلوساكسون البروتستانت، لكن رغم التأثير الصهيوني فإن اليهود ليسوا هم الذين يحركونهم، وإنما تلتقي أهداف الطرفين، فالأنجلوساكسون يعتقدون أن

اليهود سيعتنقون المسيحية بعد عودة المسيح، ويرون أن الدفع باليهود إلى فلسطين يسرع من تنفيذ خطة الرب.

يرى البروتستانت أن لليهود دورًا حاسمًا في تحقيق نبوءة نهاية الزمان كما أشار لها (الكتاب المقدس) بعودتهم إلى فلسطين، واستقرارهم مرة أخرى في الأرض التوراتية، وإعادة بناء القدس وبناء الهيكل الثالث في الموضع الذي يشغله المسجد الأقصى وقبة الصخرة. إنهم يعتقدون أن إنشاء إسرائيل مقدمة ضرورية لسيناريو النهاية، ومن أجل هذا قاد رموز البروتستانت حركة إعادة اليهود إلى فلسطين بحماس يفوق حماس اليهود أنفسهم.

فقد «حاجج الداعية البريطاني إيرل شافتسبري في سنة ١٨٣٩م أن اليهود لا بد أن يعودوا إلى فلسطين قبل المجيء الثاني للمسيح، وفي ظل تأثيره أقامت الحكومة البريطانية قنصلية في القدس، وكان القنصل الإنجليزي المعين بروتستانتيًا متدينًا، وكان هو أول من عزَّز فكرة فرض الحماية البريطانية على فلسطين؛ للدفاع عن عشرة آلاف يهودي كانوا يعيشون فيها بالفعل، وليكون لبريطانيا قاعدة استراتيجية في قلب الإمبراطورية العثمانية». (٦١)

إن وعد بلفور جاء تتويجًا للأفكار البروتستانتية المتطرفة، وترجمة مباشرة لعقيدة الأنجلوساكسون في بريطانيا وأمريكا، وليس فقط تحقيقًا لأمنيات اليهود.

ولأن هذه الاتجاهات نابعة من العقيدة فإن بعض هذه الأفكار الرؤيوية تظهر في الثقافة والفنون؛ حيث «تشكل مادة لكثير من الأفلام السينمائية والروايات- غزو الفضاء، ونجوم وشهب تدمر الأرض، ناطحات سحاب تمحوها النيران، مدن تجتاحها العناكب الضخام، أناس مشوهون لبقائهم على قيد الحياة بعد حروب نووية». (٦٢)

٣- قد يختلف المتدينون الغربيون، وينقسمون إلى مذاهب دينية شتى، ولكن في المعركة مع الإسلام يتحدون جميعًا ضد المسلمين. قد يختلفون في طرق إخضاع المسلمين والسيطرة عليهم، لكنهم يتفقون على منع إقامة الدولة الإسلامية الكبرى مرة أخرى. وبالتالي فإن اختلافاتهم أحيانًا ليست إلا خلافات في الوسائل، وليست خلافات متعلقة بالغايات.

رغم كل ذلك، علينا أن نستفيد من الخلافات المذهبية بين الغربيين، في حدود الممكن واغتنام الفرص، حتى وإن كانت محدودة، والتي تنتج عن التناقضات بين مذاهب ومصالح تلك الدول. لكن يجب تحديد نقاط التواصل مع الدول والكيانات، كلٌّ وفق معتقداته وتماسّ مصالحه مع الأمة. إن الدول الأرثوذكسية مثل روسيا وحلفائها في البلقان تختلف عن الدول الأوروبية الكاثوليكية. وكلا المجموعتين تختلفان بقدر ما عن الدول البروتستانتية، خاصة المحور الأنجلوساكسوني، مع مراعاة أن التعميم ليس صائبًا في كل الأحوال داخل كل مجموعة، ولا يتخذ منحًى واحدًا في كل الأوقات.

علينا أن نستفيد من الخلافات المذهبية بين الغربيين، في حدود الممكن واغتنام الفرص، حتى وإن كانت محدودة، والتي تنتج عن التناقضات بين مذاهب ومصالح تلك الدول

إن فهم الخلافات المذهبية بين الدول الغربية يفيد في تحديد شكل التعامل مع هذه الدول، وإذا كان الأمويون والعباسيون قد فهموا نزعة العدوان الأوروبية وقهروها بالجهاد، وحصروا الغربيين في أوروبا؛ فإن العثمانيين أفضل من استثمر هذه الخلافات عن علم ودراية وتخطيط. فقد استغلوا الصراع بين الكنيسة الكاثوليكية في روما والكنيسة الأرثوذكسية في الدولة البيزنطية؛ مما جعلهم يفتحون القسطنطينية ويسقطون الإمبراطورية البيزنطية.

وبسبب إدراك التناقضات واصل العثمانيون زحفهم غربًا مستغلين الخلاف على الزعامة بين الملوك

الأوروبيين، خاصة الفرنسيين والأسبان والإنجليز، ثم الخلافات بين الكاثوليك والبروتستانت. إن فهم التناقضات بين الأوروبيين وحده ما كان يجدي لولا قوة العثمانيين عقديًا واقتصاديًا وعسكريًا. إن قوتهم هي التي كانت تدفع ملوك وأمراء أوروبا للاستقواء بالخليفة المسلم في صراعاتهم مع بعضهم البعض، وكان منهم من يدفع الجزية كل عام للخليفة، ويقدم الهدايا استرضاءً للباب العالي.

وفي هذا الإطار يمكن الاستفادة من الخلاف بين أوروبا الكاثوليكية والبروتستانتية من ناحية، وبين الأرثوذكسية الشرقية المتمثلة في روسيا التي انتقلت إليها زعامة الأرثوذكس بعد سقوط القسطنطينية من ناحية أخرى.

وهذا الخلاف تاريخي منذ اجتياح الحملة الصليبية الرابعة للإمبراطورية البيزنطية واحتلال الصليبيين الكاثوليك للقسطنطينية (١٢٠٤م) ونهبها، واستباحة سكانها الأرثوذكس. منذ ذلك الوقت فشلت كل محاولات الكاثوليك للسيطرة على الكنيسة الأرثوذكسية أو المصالحة معها ، والتي كان آخرها زيارة البابا بندكت السادس عشر لتركيا في ديسمبر ٢٠٠٦، والتي كان الهدف الرئيسي منها المصالحة بين الفاتيكان والكنيسة الأرثوذكسية.

٤- بشكل استراتيجي، لا بد من تغيير الاتجاه «غربًا»؛ لأنه يتناقض مع مصالح الأمة الاسلامية وعقيدتها؛ لكون ذلك يصب في استمرار التبعية السياسية والاقتصادية والاجتماعية للدول الغربية، ويعمق أزمة الأمة. إن تغيير الاتجاه أصبح واجبًا تفرضه العقيدة وتقتضيه المصلحة. وليس المقصود هنا استبدال الشرق بالغرب - وإن كان هذا مفيدًا مرحليًا - إنما بإعادة اكتشاف طاقات الأمة الكامنة والاعتماد على الذات في كل المجالات، والجهاد من أجل ذلك. لا يشغلنا تقوية الأقطاب كما يدعو البعض، وإنما علينا أن نقوي الذات، ونبني قوتنا، فالعالم لن ينصلح حاله إلا بعودة المسلمين كأمة قائدة، ولن يتحرر المسلمون بالارتماء في أحضان الأقطاب الأخرى.

٥- لن تستعيد الأمة قوتها إلا بإعادة الاعتبار إلى العقيدة كمصدر رئيس للنهضة. علينا مواجهة الغرب بعقيدتنا. لم يعد من المقبول ما يدعو إليه بعض المحسوبين على الأمة بأن نتجرد من ديننا في مواجهتنا مع الغرب في وقت يهاجمنا الغربيون بكل أسلحتهم.

عالم اليوم لا يعرف الأقطار المعزولة ولا الكيانات الصغيرة، ولا الجماعات المحاصرة. إن الأعداء يواجهوننا جميعًا، ولا يردعهم أن نواجههم فرادى

يجب نقل الأمة من حالة الدفاع إلى حالة المواجهة لكسر الهجمة الغربية، وهذه النقلة تحتاج إلى تضافر جهود الأمة في شتى المجالات. وتتيح التطورات الجارية إمكانية حدوث ذلك؛ خاصة مع فشل العسكرية الأمريكية في فرض مشروعها الإمبراطوري بقوة السلاح؛ بسبب اتساع مناطق القتال مع المسلمين التي أضعفت الغزاة وولَّدت الطاقات الكامنة في الأمة.

ولكي تستطيع الأمة ذلك فإنها تحتاج إلى رأس قيادي، فهذا الجسد الضخم مزقه الأعداء؛ بسبب غياب الرأس التي تخطط وتقود. والرأس لا تعني دولة بمفردها أو جماعة إسلامية مهما كانت قوتها، عالم اليوم لا يعرف الأقطار المعزولة ولا الكيانات الصغيرة، ولا الجماعات المحاصرة. إن الأعداء يواجهوننا جميعًا، ولا يردعهم أن نواجههم فرادى.

إن المعركة التي يخوضها الغرب تهدف أساسًا لمنع المسلمين من تكوين هذه الرأس. إذن فإن إعادة بناء رأس للأمة هو التحدي الحقيقي لحصد نتاج حالة المقاومة واليقظة التي باتت ظاهرة مشهودة في أنحاء الجسد الإسلامي.

الخلاصة:

إن الغرب كيان يميل إلى الصراع، يتحرك بدافع من اتجاهات عدوانية أضفى عليها المشروعية الأخلاقية من خلال عقيدة؛ تبدلت عبر التاريخ، وانقسمت مذهبيًا داخل أوروبا. لقد واجه المسلمون المذهب الأرثوذكسي الذي اعتنقته الإمبراطورية البيزنطية، ثم الكاثوليكية في الحروب البابوية الصليبية، تلاها الكاثوليكية والبروتستانتية في الحملات الاستعمارية، والآن لازالت الأمة الإسلامية تواجه الحروب العدائية التي يقودها البروتستانت المتحالفون مع اليهود في حروب أكثر اتساعًا وأشد دمارًا.

ما نراه اليوم من حروب ضد العالم الإسلامي إنما هو نتيجة للأفكار العدائية المنبثقة من العقيدة التي ترى أن خلاص الغرب المتدين إنما يكمن في شن حروب نهاية الزمان.

لا يمكن فهم التحركات الغربية دون فهم طبيعة العقلية الغربية التي تتخذ من الدين ستارًا للتنفيس عن عقدة الصراع مع الآخرين، التي ارتبطت بالشعوب الغربية تجاه بعضهم البعض وتجاه الآخرين، وإن لم نفهم طبيعة الأفكار الدينية في تشكيل وتوجيه الغرب لن نستطيع أن نضع أيدينا على الطريق الصحيح لمواجهة العدوان، ولن نستطيع فهم البوصلة التي تحدد توجهات السياسات الغربية.

علينا أن نتعلم من تجربة المسلمين الأوائل الذين عرفوا كيف يتعاملون مع أوروبا، بما حمى الأمة وباقي العالم من شرور الغرب.

إن لم نحذ حذو من سلف من أبناء الأمة الإسلامية الذين دان لهم العالم قرونًا طويلة، فلا مخرج للأمة من حالة الانهزام والحصار والتبعية التي أنهكت قوة المسلمين وكبلتهم، وجعلتهم عرضة لمذابح لا تتوقف.

الهوامش:

(١) صفة للعرق الأنجلوساكسوني الذي استوطن إنجلترا ثم انتقل إلى أمريكا الشمالية وأستراليا ونيوزيلاندا، ويتكون الأنجلوساكسون من قبائل الأنجلز والساكسون التي غزت بريطانيا في القرن الخامس الميلادي، واستقرت بها.

(٢) الإحصاءات الواردة هي من موقع http://geohive.com، وقد تم جمعها في شهر سبتمبر عام ٢٠٠٦م.

(٣) لمزيد من التفاصيل انظر عامر عبد المنعم، الغرب أصل الصراع، العدد الثاني من سلسلة رؤى معاصرة، القاهرة، المركز العربي للدراسات الإنسانية ٢٠٠٦م.

(٤) ابن قيم الجوزية، زاد المعاد، الجزء الثالث، ط١، القاهرة، مكتبة الصفا ٢٠٠٢، ص٢١٠.

(٥) محمود ثابت الشاذلي، المسألة الشرقية، ط١، القاهرة، مكتبة وهبة ١٩٨٩، ص١١.

(٦) أندرو ملر، مختصر تاريخ الكنيسة، ط٤، القاهرة، مكتبة الأخوة ٢٠٠٤، ص٢٦١.

(٧) المرجع السابق، ص٣٢٧.

(٨) المرجع السابق، ص٢٦٨.

(٩) د/ عبد العزيز سليمان نوار، ود/ محمود محمد جمال الدين، التاريخ الأوروبي الحديث من عصر النهضة حتي نهاية الحرب العالمية الأولى، ط١، القاهرة، دار الفكر العربي ١٩٩٩، ص٦٠.

(١٠) المرجع السابق، ص٥٩.

(١١) مايكل نورثكوت، الملاك يوجه العاصفة، ط١، القاهرة، الشروق الدولية ٢٠٠٦، ص ٢٢.

(١٢) المرجع السابق، ص ٨٩.

(١٣) د/ محمد عارف، صعود البروتستانتية في أمريكا وتأثيره على العالم الاسلامي، ط١، القاهرة، الشروق الدولية، ٢٠٠٦، ص ١٦٥.

(١٤) بيتر سكاون، أمريكا: الكتاب الأسود، ط١، بيروت، الدار العربية للعلوم ٢٠٠٣، ص ٧٢.

(١٥) المرجع السابق، ص ٨٥.

(١٦) الموسوعة العربية العالمية : (http: / /www.mawsoah.net)

(١٧) د/ عبد العزيز صقر، الدين والدولة في الواقع الغربي، ط١، القاهرة، دار ومكتبة العلم للجميع ١٩٩٨، ص٤٠.

(١٨) المرجع السابق، ص٤٠.

(١٩) الموسوعة العربية العالمية. مرجع سابق.

(٢٠) ويل ديورانت، قصة الحضارة، المجلد السادس ص٢٧٧.

(٢١) د/ محمد عارف، صعود البروتستانتية في أمريكا وتأثيره علي العالم الاسلامي، ط١، القاهرة، الشروق الدولية، ٢٠٠٦، ص ٥٤.

(٢٢) مايكل نورثكوت، الملاك يوجه العاصفة، ط١، القاهرة، الشروق الدولية ٢٠٠٦، ص ٧٢.
(٢٣) المرجع السابق، ص ٧٦.
(٢٤) الإيفانجيليكي –حسب جورج م. مارسدن في كتابه «كيف نفهم الأصولية البروستانتية والإيفانجليكية»– هو الأصولي المقاتل في مواجهة علم اللاهوت الليبرالي في الكنائس، أو ضد التغيرات في القيم الثقافية والأعراف، ويطلق المصطلح أيضًا على أتباع الدعاة التلفزيونيين من المحافظين الجدد مثل بيلي جراهام الذين حولوا الجماعات الدينية إلى قوّى سياسية لها نفوذ على صنع القرار السياسي، وتأثير قوي في الانتخابات الأمريكية.
(٢٥) مايكل نورثكوت، المرجع السابق، ص ٥٣.
(٢٦) ويكيبيديا (http: / /ar.wikipedia.org)
(٢٧) مايكل كوربت وجوليا كوربت، الدين والسياسة في الولايات المتحدة، ط١، الجزء الأول، القاهرة، الشروق الدولية ٢٠٠٢، ص ٤٣.
(٢٨) المرجع السابق، ص ٢٩.
(٢٩) المرجع السابق، ص ٥١.
(٣٠) المرجع السابق، ص ٥٦.
(٣١) المرجع السابق، ص٦٨.
(٣٢) جورج مارسدن، كيف نفهم الأصولية البروتستانتية والإيفانجليكية، ط١، القاهرة، الشروق الدولية ٢٠٠٥، ص٢٥.
(٣٣) د/ محمد عارف، صعود البروتستانتية في أمريكا وتأثيره علي العالم الاسلامي، ط١، القاهرة، الشروق الدولية، ٢٠٠٦، ص ٦٥.
(٣٤) المرجع السابق، ص ٦٦.
(٣٥) المرجع السابق، ص ٨٨.
(٣٦) المرجع السابق، ص ٧٠.
(٣٧) المرجع السابق، ص ١٨٧.
(٣٨) مصطلح يشبه التوبة عند المسلمين، يطلق علي من ينضم إلى حركة المحافظين الجدد، وهو يعني أنه دخل في الإيمان من جديد.
(٣٩) د/ محمد عارف، صعود، مرجع سابق، ص ١٨٧.
(٤٠) المرجع السابق، ص ١٨٧.
(٤١) مايكل كوربت وجوليا كوربت، الدين والسياسة في الولايات المتحدة، ط١، الجزء الأول، القاهرة، الشروق الدولية ٢٠٠٢، ص ٥٠.
(٤٢) كليفورد لونجلي، الشعب المختار: الأسطورة التي شكلت إنجلترا وأمريكا، دار الشروق، الجزء الثاني ص٢٧.
(٤٣) روجيه جارودي، الإرهاب الغربي، ط١، الجزء الأول، القاهرة، مكتبة الشروق الدولية ٢٠٠٤، ص٦٧.
(٤٤) المرجع السابق، ص١٧.
(٤٥) كليفورد لونجلي، ص١٥.
(٤٦) المرجع السابق، ص٧٥.
(٤٧) المرجع السابق، ص٢٥.
(٤٨) المرجع السابق، ص٢٥.
(٤٩) المرجع السابق، ص٢٩.
(٥٠) المرجع السابق، ص١٠٦.
(٥١) د/ باسم خفاجي، الشخصية الأمريكية، ط١، القاهرة، المركز العربي للدراسات الإنسانية ٢٠٠٥، ص٥٦.
(٥٢) كليفورد لونجلي، ص١٣٥.
(٥٣) http: / /uk.encarta.msn.com/
(٥٤) د/ محمد عزيز شكري، الأحلاف والتكتلات في السياسة العالمية، الكويت، العدد ٧ من سلسلة عالم المعرفة ١٩٧٨، ص٤٦.
(٥٥) المرجع السابق، ص٥٠.
(٥٦) مايكل نورثكوت، الملاك يوجه العاصفة، ط١، القاهرة، الشروق الدولية ٢٠٠٦، ص ٤٩.
(٥٧) ويكيبيديا.
(٥٨) The existence of a global system for the interception of private and commercial communications (ECHELON interception system) (INI)٢٠٠١/٢٠٩٨
تقرير البرلمان الأوربي صدر في ١١ يوليو ٢٠٠١.
(٥٩) الكتاب السنوي لوكالة المخابرات المركزية الأمريكية fact book.
(٦٠) المصدر: http: / /www.adherents.com
(٦١) مايكل نورثكوت، الملاك يوجه العاصفة، ط١، القاهرة، الشروق الدولية ٢٠٠٦، ص ٨٤.
(٦٢) المرجع السابق، ص ٢١.

معلومات إضافية

مارتن لوثر (Martin Luther):

مصلح ديني مسيحي شهير، ومؤسس المذهب البروتستانتي المسيحي.

مولده:

ولد في إيسـليبن في شمالي ألمانيا يوم ١٠ نوفمبر ١٤٨٣، وتوفي في نفس البلدة في ١٨ فبراير ١٥٤٦. كان أبوه عامل مناجم. وتعلم في مدارس مجدبورج وايزناخ.

تعليمه:

في سـنة ١٥٠١ دخل جامعة ارفورت، وحصل على الإجازة الجامعية في سـنة ١٥٠٥، ويقول عن نفسـه: إن قسـوة أبويه عليه حملاه على دخول الدير الأوغسطيني في ارفورت سنة ١٥٠٥. وفي سنة ١٥٠٧ رسّم قسيسًا، وفي سنة ١٥٠٨ قام بتدريس الفلسفة في [جامعة فتنبرج]، وتولى شرح كتاب «الأخلاق إلى نيقوماخوس» لأرسطو، واستمر في ذلك عامي ١٥٠٨ - ١٥٠٩.

بداية دعوته:

في سـنة ١٥١١ سـافر إلى روما، وهذه الرحلة هي التي غيَّرت مجرى حياته، ولما عاد منها بدأ سيرته مصلحًا للدين المسيحي. وكان البابا في روما، في أشد الحاجة إلى المال، ولم يجد سبيلاً للحصول عليه إلا عن طريق إصدار وبيع صكوك الغفران، وكان يطلب إلى الناس شراءها ليغفر الله ذنوب أقربائهم، أو من يشاؤون ممن يعذبون في المطهر؛ بسبب ما اقترفوه من ذنوب. وكان يشرف على هذه العملية راهب دومنيكي يدعى يوحنا تتسل، وذلك في سنة ١٥١٦، فراح يروّج لهـا بطرق ظاهـرة أثارت ثائرة مارتن لوثر، فأصدر لوثر بيانًا يحتوي على ٢٥ قضية ضد صكوك الغفـران. ولصق البيان على باب كنيسـة فتنبرج، في يوم ٣١ أكتوبر ١٥١٧ ، فسـافر تتسـل إلى فرانكفورت، وأصدر من هناك بيانًا فنَّد فيه قضايا لوثر الـ٢٥، وقام بإحراق بيان لوثر علنًا، فانتقم الطلاب في فتنبرج فأحرقوا بيان تتسل.

المواجهات:

في سنة ١٥١٨ انضم ملانكتون إلى لوثر. وتدخل البابا ليو العاشر (Leo X) في النزاع، فاستدعى لوثر إلى روما سـنة ١٥١٨؛ لاستجوابه في أمر قضاياه تلك. فتدخلت الجامعة كما تدخل نائب سكسونيا، وأخفقت المفاوضات التي أجراها الكردينال كاجتان وملتتس.

وفي سنة ١٥٢٠ نشر لوثر نداءه الشهير الموجه إلى «النبلاء المسيحيين في ألمانيا» وتلاه برسالة عنوانها : «في الأسْر البابلي للكنيسة». وفي كليهما هاجم المذهب النظري لكنيسة روما، فأصدر البابا ليو العاشر مرسومًا ضد لوثر يحتوي على ٤١ قضية. لكن لوثر أحرق المرسوم علنًا أمام جمع حاشد من الأهالي والطلاب والعلماء في مدينة فتنبرج.

وامتد الهيجان إلى سائر ألمانيا فدعا الإمبراطور كارل الخامس (شارلكان) إلى عقد مجمع في مدينة فورمس في سنة ١٥٢١ وأصدر المجمع قرارًا بتدمير كتب لوثر، وأمر لوثر بالمثول أمام هذا المجمع، وصدر قرار بنفيه من سائر بلاد الإمبراطورية الألمانية.

وفي سنة ١٥٢٢ لما قامت الاضطرابات الشهيرة، عاد مارتن لوثر إلى فتنبرج، وأعلن سخطه على الثائرين، كما أعلن سخطه على الطغاة. وفي نفس السنة كتب ردّه الحاد على ملك إنجلترا هنري الثامن، حول الطقوس السبعة.

تتلخص إصلاحات لوثر في الكنيسة الكاثوليكية، وإنشاؤه الكنيسة البروتستانتية على أسس:

١- إلغاء غفران القسيس للذنوب، وحرق صكوك الغفران، وبالتالي إلغاء تكسب الكنيسة من الشعب.

٢- المطالبة بزواج الكهنة والقسس، وقام بالزواج من إحدى الراهبات.

٣- إلغاء القداس الإلهي، وغفران القسيس لذنوب الميت؛ حيث لا يغفر الذنوب إلا الله.

٤- إلغاء تحويل القسيس للخبز والخمر إلى جسد المسيح ودمه؛ باعتبارها عملية نصب.

جون كَالْفِن (**١٥٠٩ - ١٥٦٤م**) :

ساعد على تأسيس البروتستانتية في جنيف وسويسرا، ووجَّه جهوده لتحويل الفرنسيين ومواطني الدول الأخرى في أوروبا الغربية إلى البروتستانتية. وقد وضعت تعاليم كالفن الأسس للكنيسة المشيخية التي يقوم مجلس من الشيوخ بإدارة كنائسها، وقدم كالفن بطريقة منظمة تعاليم البروتستانتية في كتابه مبادئ الدين النصراني، الذي نشر لأول مرة عام ١٥٣٦م، وقد سُمي أتباع كالفن في فرنسا الهجنوت. وقد حاول ملوك فرنسا الكاثوليك بدعم من أسبانيا قمع الهوغنيين في سلسلة من الحروب الدينية بين عامي ١٥٦٢- ١٥٩٨م، وقتل الآلاف منهم، ولكن البروتستانتية استمرت أقلية دينية حتى في فرنسا.

حركة الإصلاح في إنجلترا:

أُسست حركة الإصلاح في إنجلترا عن طريق الدولة. وقد كان السبب المباشر في انشقاق إنجلترا عن الكنيسة الكاثوليكية رفض البابا كلمنت السابع، زواج الملك هنري الثامن من

زوجتـه الأولى كاثرين الأرجوانية التي لم تلـد له ابنًا. وقد أراد الملك الزواج من آن بولين على أمل أن تُنجب له وريثًا للعرش.

في عام ١٥٣٤م أجاز البرلمان الإنجليزي قانون سيادة أصبح بموجبه الملك رئيس الكنيسة في إنجلترا. وقد ظل الملك هنري الثامن كاثوليكيًا في الأسـاس. ولكن البروتستانتية تقدمت كثيرًا في عهد ابنه إدوارد السادس. وأسست الملكة إليزابيث الأولى (١٥٥٨ - ١٦٠٣ م) شكلاً معتدلاً من البروتستانتية عرفت فيما بعد بالأنجليكانية. وقد سمي أتباع جون كالفن بالتطهيريين. عادَى التطهيريون الإنجيلية؛ لأنها أسـقفية يديرها الأساقفة، بينما يفضل التطهيريون الشكل المشيخي لإدارة الكنيسة (من جانب كبار الشيوخ النصارى).

وفي أسكتلندا قدم جون نوكس تعاليم كَالْفِن ونظام الكنيسة المشيخية: وفي عام ١٥٦٠ م اتخذ الأسكتلنديون البروتستانتية دينًا للدولة، وقد أجبرت إنجلترا أيرلندا على تبني البروتستانتية دينًا للدولة. ولكن الأيرلنديين ظلوا مخلصين للكاثوليكية. اسـتعمر البروتسـتانت أيرلندا الشمالية المعروفة بألستر، ولا يزال الصراع بين الكاثوليك والبروتستانت دائرًا فيها حتى اليوم.

الحروب الصليبية :

شـهدت مدينـة «كليرومون» الفرنسـية حدثًا خطيـرًا في (٢٦ من ذي القعـدة ٤٨٨ هـ - ٢٧ من نوفمبـر ١٠٩٥م) كان نقطـة البدايـة للحروب الصليبيـة؛ حيث وقف البابا «أوربـان الثاني» في جمع حاشـد من الناس يدعو أمراء أوروبا إلى شـنّ حرب مقدسـة من أجل المسـيح، وخاطب الحاضرين بلغة مؤثرة تكسـوها الحماسـة، ودعاهم إلى تخليص الأرض المقدسـة من سيطرة المسـلمين، ونجدة إخوانهم في الشـرق، ودعا المسـيحيين في غرب أوروبا إلى ترك الحروب والمشاحنات، وتوحيد جهودهم إلى قتال المسلمين في الشرق.

وكي يُقبل الناس على الاشتراك في هذه الحروب وعدهم البابا بمنح الغفران لكل من يشترك في هذه الحرب، وتعهد بأن الكنيسـة ستبسـط حمايتها على أسر المحاربين وأمتعتهم؛ فلا تتعرض زوجاتهم أو أطفالهم أو أملاكهم لأية أخطار، وقد لقيت خطبة «أوربان» الحماسية - بما انطوت عليه من امتيازات ومكاسـب دينية ودنيوية - استجابة هائلة على الفور من الحاضرين، وأيقظت في نفوسهم روح المغامرة والكسب؛ فصاحوا جميعًا صيحة مدوية هزت أرجاء الفضاء قائلين: «هذه مشـيئة الله»، وكانت هذه الصيحة المشـئومة إيذانًا بفتح أول صفحة في كتاب «الحروب الصليبية»، وبداية صراع دام عدة قرون.

أول متطوع في الحروب الصليبية:

ولـم يكـد البابا «أوربان الثاني» يفرغ مـن خطبته التي دعا فيها إلى محاربة المسـلمين حتى جثا «أدهمار» أسـقف بوي أمـام قدمي البابا، راجيًا أن يكون له شـرف المسـاهمة في تلك الحرب المقدسـة، وبذلك افتتح هذا الأسقف قائمة المتطوعين التي لم تتوقف بعد ذلك، واختاره البابا

ليكون مندوبًا عنه يقود الصليبيين في رحلتهم إلى المشرق، إشارة بأن تلك الحروب إنما تتم تحت إشراف الكنيسة وهيمنتها.

وأمر البابا رجال الكنيسة الذين كانوا يحضرون خطبته أن يعودوا إلى بلادهم، ويبشروا بالحروب الصليبية، وعهد إلى أحد رؤساء الأديرة بأن يدعو إلى الحرب في «نورماندیا» و«إنجلترا»، وبعث بأسقفين إلى «جنوة» لإثارة حماس أهلها، وحدَّد البابا الخامس عشر من أغسطس من سنة ١٠٩٦م (وهو يوافق ٢١ من شعبان ٤٨٨) موعدًا لرحيل الحملة إلى الشرق؛ حيث تكون المحاصيل قد جُمعت، ويكون التجمع واللقاء في مدينة القسطنطينية الحصينة.

ولم تلبث دعوة البابا أن لقيت رواجًا وانتشارًا في أوروبا، وتأثر بها العامة والدهماء، وراودتهم أحلامهم في حياة ينعمون فيها بالرخاء في الشرق، متأثرين بما يروجه رجال الكنيسة، وسرعان ما تكونت حركة شعبية ارتبطت باسم «بطرس الناسك».

بطرس الناسك:

يذكر المؤرخون أن بطرس الناسك كان رجلاً قصير القامة، أسمر اللون، يمشي حافي القدمين، مرتديًا ملابس رثة، وكان راهبًا هجر الدير بتكليف من البابا؛ لكي يقوم بالدعوة إلى الحملة الصليبية، فطاف بمختلف أقاليم فرنسا بهيئته المزرية داعيًا إلى حملة البابا، وفي كل مكان يحل به كان يسحر ألباب الناس، ويخلب أفئدتهم ببيانه الساحر وفصاحته؛ حتى تجمع حوله أعداد هائلة من الأتباع، بلغوا خمسة عشر ألفًا، منهم فلاحون وأهل مدن، وفئات من صغار النبلاء، وبعض المجرمين وقطاع الطرق، ولم يكن يجمع هؤلاء الشراذم إلا الحماسة والرغبة في قتال المسلمين، والاستيلاء على الأرض.

لم تصبر هذه الجموع الغوغاء حتى موعد الرحيل الذي حدَّده البابا للحملة، ولم تفلح محاولات البابا في إثنائهم عن الرحيل، ولم تجد دعوته استجابة من هؤلاء الغوغاء، ولم تستطع اللوائح التي وضعها «أوربان» علاج الموقف.

وتحركت هذه الجموع تحمل محاصيلها فوق عربات ثقيلة تجرها الثيران، وفي صحبتهم الزوجات والأطفال، حتى وصلوا «كولونيا» في (١٥ من ربيع الآخر ٤٨٩هـ - ١٢ من أبريل ١٠٩٦م)، وظلوا بها فترة من الوقت يتزودون بالمؤن، ويتقوون بانضمام الألمان إليهم حتى تضاعف عددهم.

والتر المفلس:

وفي الوقت الذي كان فيه بطرس الناسك ماضيًا في دعوته في الغرب الأوروبي ظهر زعيم آخر من زعماء العامة اسمه «والتر المفلس»، التف حوله بعض الناس، وعبر بهم أرض «هنغاريا» ثم أراضي الدولة البيزنطية، وطوال الطريق كانوا ينهبون ويسلبون ويعتدون على الأهالي حتى بلغوا

القسطنطينية في (رمضان ٤٨٩هـ = يوليو ١٠٩٦) وسمح لهم الإمبراطور البيزنطي ألكسويس كوفين بالانتظار خارج أسوار العاصمة حتى وصول «بطرس الناسك».

الطريق إلى القسطنطينية:

غادر بطرس الناسك «كولونيا» في (٢٣ من ربيع الآخر ٤٨٩هـ - ٢ من أبريل ١٠٩٦م) متجهًا إلى المجر، على رأس حشوده الجرارة من الغوغاء والدهماء، وأثناء عبورهم المجر عند بلدة «سملين»، وقع خلاف بين المجر وجنود الحملة بسبب الحصول على المؤن، وتطور الخلاف إلى مذبحة ارتكبها الصليبيون أسفرت عن مقتل أربعة آلاف من أهل المجر الأبرياء، وتحولت «سملين» إلى خرائب تتصاعد منها دخان الحرائق التي أشعلها جنود الرب، ضد إخوانهم المسيحيين الذين زعم الصليبيون أنهم جاءوا لنجدتهم.

وعندما وصل «بطرس الناسك» الذي كان يمتطي حماره في مقدمة جيشه إلى مدينة «نيش» التي تقع على الحدود البيزنطية خاف قائد الحامية البيزنطية على مدينته من التصرفات الحمقاء لهذه الجموع، فاتخذ تدابير لمواجهتهم عند الضرورة بأخذ بعض الرهائن منهم، لكن الصليبيين عاودوا أعمال السلب والنهب وتخريب القرى والمدن، ولم يجد البيزنطيون بُدًّا من مهاجمة بطرس الناسك، وقتل كثير من رجاله، وأسر عدد آخر، والاستيلاء على الأموال والتبرعات التي كان الراهب قد جمعها من أغنياء غرب أوروبا، لكن ذلك لم يؤثر في مسيرة الجيش الصليبي، وسار صوب مدينة «صوفيا»، وهناك لقيه مندوبون عن الإمبراطور البيزنطي، وأبلغوا «بطرس» ومن معه باستياء الإمبراطور، وبأوامره التي تقضي بألا يمكث الصليبيون في أي مدينة بيزنطية أكثر من ثلاثة أيام.

على أسوار القسطنطينية:

وصلت الشراذم المتبقية من حملة بطرس الناسك إلى أسوار القسطنطينية في (شعبان ٤٨٩هـ - يوليو ١٠٩٦م)، وأرسل الإمبراطور البيزنطي في طلب بطرس الناسك، وعرض عليه أن ينتظر بقواته خارج المدينة حتى تأتي القوات الصليبية الرئيسية في الموعد الذي حدده البابا لتجمع القوات الصليبية، لكن بطرس رفض عرض الإمبراطور ونصائحه التي أسداها إليه، وأغرته كثرة أتباعه وأنصاره.

وواصل الصليبيون أعمالهم الهمجية في القسطنطينية، وارتكبوا كثيرًا من المخازي، ومارسوا السلب والنهب، واضطر الإمبراطور البيزنطي أن يتخلص من هذا الشر المستطير بنقلهم بسرعة عبر المضايق إلى آسيا الصغرى، وفي الوقت نفسه كرر نصائحه للصليبيين بالتروي والانتظار عند أحد المراكز الحصينة بالقرب من «البسفور»، حتى تأتيهم الإمدادات والجيوش النظامية المدربة من الغرب، لكنهم لم ينصتوا إلى نصائحه، ولم يستطيعوا ضبط أنفسهم، والكف عن السلب والنهب، والاعتداء على المزارع والضياع والقرى والكنائس القريبة.

نهاية محتومة:

أخذ الصليبيون يوسعون دائرة أعمالهم الهمجية، وواصلوا زحفهم إلى «نيقية» قاعدة السلطان السلجوقي «قلج بن أرسلان»، وكان عدد الصليبيين خمسة وعشرين ألفًا، منهم خمسمائة من الفرسان -على أكثر تقدير-، والباقون من المشاة المعدمين الذين لا يربطهم نظام، ولا توحد صفوفهم قيادة مؤهلة، ولم يجد الأتراك السلاجقة صعوبة في الإيقاع بهذا الجيش الهمجي والإجهاز عليه تمامًا، حتى إنه لم ينج من ذلك الجمع الحاشد من الصليبيين سوى ثلاثة آلاف، وعندما وصلت أنباء هذه الهزيمة إلى الإمبراطور أرسل بعض سفنه تحمل إمدادات إلى الصليبيين، لكن ذلك كان بعد فوات الأوان، فحملت فلولهم إلى القسطنطينية وظلوا في رعاية الإمبراطور حتى وصول الحملة الرئيسية التي شاءت لها الأقدار أن تؤسس الإمارات الصليبية في الشرق، وتستولي على بيت المقدس.

وهكذا انتهت حملة الرعاع فوق تراب الشرق، وضاع الحلم الذي راودهم، وحرك فيهم مشاعر الطمع والاستمتاع بخيرات الأرض التي تفيض باللبن والعسل.. لكن الهزيمة لم تمنع من تكرار المحاولة، وبدأت سلسلة الحملات الصليبية على الشرق الإسلامي.

أحمد تمام

shtml.article٠٧/١١/١٤٢٢/http: / /www.islamonline.net /Arabic /history